المقالات الفائزة بالجوائز لعام ٢٠٠٢-٢٠٠٣م

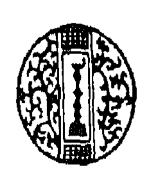
مسابقة مولانا أبو الكلام آزاد الدولية لكتابة المقالات

الهند كمهد للديانات في ضوء كتابات مولانا أبو الكلام آزاد

المقالات الفائزة بالجوائز لعام ٢٠٠٢-٢٠٠٣م

مسابقة مولانا أبو الكلام آزاد الدولية لكتابة المقالات

الهند كمهد للديانات في ضوء كتابات مولانا أبو الكلام آزاد



المجلس الهندي للعلاقات الثقافية

آزاد بهاون، نيو دلهي، الهند

تقديم

. مولانا أبو الكلام آزاد أحد المعماريين لاستقلال الهند وأول وزير للتعليم في الهند المستقلة. عندما تولى مولانا آزاد حقيبة وزارة التعليم في الهند، كانت على عاتقه مسؤولية وضع أسس الهند الحديثة. ونحن اليوم إذ ندين لرؤية وحكمة مولانا آزاد في سياسة التعليم بالهند حيث مكن البلاد أن تقف بصلابة أمام تحديات العصر الحديث ومسؤولياته الجمة.

قام مولانا آزاد بتقديم إسهامات جديرة ومقدرة لتحديد أهمية إقامة العلاقات الحميمة مع البلدان الخارجية. أما الهدف الأساسي من مسابقة مولانا آزاد السنوية لكتابة المقالات هو إعطاء فرصة للجيمع لكي يدرسوا ويقدروا أفكاره وفلسفته.

أود أن أعبر عن بالغ شكري وتقديري العميق لكل المشاركين في هذه المسابقة، وأيضا للجنة التحكيم الخاصة بها.

الهند كمهد للديانات في ضوء كتابات مولانا أبو الكلام آزاد

جمع وترتيب: صهيب عالم

الناشر: راكيش كومار
المدير العام
المجلس الهندي للعلاقات الثقافية،
آزاد بهوان، نيودلهي- ١١٠٠٠٢

التصميم والتنضيد: مطبعة شبرا، دلهي، ١١٠٠٩٢

خلفية

عندما قام السيد همايون كبير وزير الطيران المدني السابق بتقديم مخطوطة مولانا أبو الكلام آزاد "India Wins Freedom" إلى المجلس الهندي للعلاقات الثقافية في ١١ آذار/ مارس ١٩٦٨م، فكان قد طلب أن يستثمر الدخل من عائدات المطبوعة في إنشاء صندوق يسمى بـ "صندوق مولانا آزاد" ليستفاد من عائدات الصندوق لتقديم الجائزة السنوية لأفضل مقال عن الإسلام باللغة الإنكليزية لمواطن هندي غير مسلم وجائزة أخرى لأفضل مقال عن الديانات الهندوسية لمواطن هندي مسلم. فبهذه المبادرة المتواضعة بدأت سلسلة مسابقة لكتابة المقالات، التي أقيمت عام ١٩٨٩ ليتزامن مع مرور الذكرى المئوية لميلاد مولانا أبو الكلام آزاد أول وزير للتعليم ومؤسس ورئيس المجلس الهندي للعلاقات الثقافية.

هذه المسابقة مفتوحة للمواطنين الهنود ومواطني دول اتحاد جنوب آسيا للتعاون الإقليمي على أن لا تزيد أعمارهم عن ٣٠ سنة. ومواضيع المقال عادة تتعلق بحياة مولانا آزاد وأفكاره وأيديولوجيته.

وأقدم الشكر إلى كل من ساهم في إعداد هذا الكتاب وأهديه إليكم لقرائته... وآمل أن ينال إعجابكم..

المدير العام

راكيش كومار

وفاز ٢٢ باحثا في هذه المسابقة في عام ٢٠٠٢م بما فيهم مساهمون من المملكة العربية السعودية و سلطنة عمان وميانمار ونيبال وسورينام.



وتتكون الجوائز من جائزة مالية وشهادة، ويتم منح الجوائز بواسطة كبار رجال الدولة في حفل خاص ينظمه المجلس الهندي للعلاقات الثقافية.

في عام ١٩٩٠م،اتخذ القرار أن بتوسيع نطاق المسابقة إلى ثلاث لغات وهي: الهندية والأردية والإنكليزية حول عنوان مماثل.

وبناء عليه فقد تم تقديم موضوعات متعددة باللغات الثلاث المذكورة أعلاه للمسابقة منذ ١٩٩٤-١٩٩٥ م.

وكانت العناوين للمسابقة الكتابية لعام ٢٠٠٢ على النحو التالي:

اللغة الهندية: مساهمة المرأة في بناء الوطن في ضوء كتابات مولانا أبو الكلام آزاد

اللغة الأردية: رسالة الإسلام للسلام في ضوء كتابات مولانا أبو الكلام آزاد

اللغة العربية: الهند كمهد للديانات في ضوء كتابات مولانا أبو الكلام آزاد.

اللغة الإنكليزية: أثر التكنولوجيا على المجتمع

الفهرس

الهند كمهد للديانات في ضوء كتابات مولانا أبو الكلام آزاد

- صهيب عالم

لم تزل الهند مهدا لحضارات متنوعة وثقافات متعددة منذ زمن قديم و تتضح أهمية تاريخها الحضاري والثقافي بأنها لفتت أنظار علماء التاريخ و الجغرافيا من العهد القديم و كل من ورد إليها جذبته أرضها الجميلة فتوطن فيها فوجد بيئتها ملائمة له فانصهر فيها، فالذين وردوا إليها كانوا يحملون ثقافات متنوعة و أحاسيس الحب والمودة و التلاءم فيما بينهم، و من ميزة سكان الهند أنهم رحبوا كل من جاءوا إليها ترحيبا حارا واستفادوا منهم في حقل العلم و الفن و الثقافة و أثروا عليهم بما كان لديهم من العلوم والمعارف، فبدأ من هذا الجو عهد جميل للتبادل الثقافي و الحضاري و وصلت إلى الهند أشعة العلوم والفنون من مختلف الجهات و أشرقت كل بقعة فيها.

جغرافيا الهند و تأثيرها على سكانها:

طبيعة الهند نفسها هي المسؤولة عن إيجاد التناقض العجيب في طبائع الناس وصفات الأشياء، ففيها الجبال الشاهقة التى لا مثيل لها في أي مكان آخر و فيها الهضاب العالية، المنقطعة الصلات بأي مكان آخر، و التي تعيش فيها كائنات أقرب إلى خطرة الحياة الأولى منها إلى حياة الحاضرة وفيها السهول الفسيحة و المنخفضات الغائرة العميقة، و فيها الأنهار الجارية والمياه الدافقة، فيها الحرارة التي تصهر الأبدان و تشويها و فيها البرودة التي تجمد الأطراف و الحواس، وفيها يعيش تقريبا جميع أجناس البشر، كما تعيش جميع أنواع البهائم و الهوام، و لهذا الاختلاف من النقيض إلى النقيض، وجدت في الهند الثروات التي تضرب بها الأمثال في استحالة الحصر و العد، كما وجدت فيها الإرقاع الذي لا نظير له في أي مكان آخر. وليس هذا هو آية ما في الهند من عجيب و لكن عقائد الناس هي عالم بذاته فجميع الأديان من الوثيقة التي تؤمن بالأحجار إلى الصوفية التي تفني في ذات الله ... و إلى طبيعة البلاد. يرجع نظام الطبقات في الهند ويجد المؤمنون بهذا التقسيم إيمانا أعمى، وليسوا قلة في الناس، ولكنهم جميع الناس ..[١]

الهند كمهد للديانات:

إن الهند منذ أقدم العصور هي نقطة التلاقي لمختلف الأجناس والعناصر والديانات المتضاربة. وقد حاولت الهند دائما

أن تحتضن هذه الديانات المتنوعة التي تتركب بها وحدتها الكاملة. ولعل الحضارة الهندية بتاريخها المتواصل هي من أقدم الحضارات و بينما حضارات البلدان الأخرى، التي عاصرتها، لم تعمر بل آلت إلى الزوال، فان الهند لم توفق إلى أن تعمر و تستمر على قيد الوجود فحسب، بل تقدمت أيضا ثقافة مستمرة غير منقطعة. وقد شاهدت الهند تلاقي أجناس مختلفة تصادمت وتصارعت ثم ما لبثت أن تأفت على أراضيها، على أنها امتصتها جميعا في النهاية.

إن وجهة النظر الموحدة التي تجلت في المنظمات السياسية والاقتصادية و العادات الاجتماعية و أساليب الحياة و اللغات والآداب والفنون الجميلة و الفن المعماري و الأديان و الفلسفة ما زالت قائمة حية.

التسامح في طبيعة الهند:

تعرف الأمة الهندية بميزة التسامح، و من الطبيعة الهندية أنها كلما اصطدمت بغارة جديدة سواء كانت عنصرية أم فكرية، ازدادت مرونتها ولعل هذا يفسر مقدرتها على أن تجذب عددا من المذاهب و المعتقدات والعادات ووجهات النظر المختلفة. فهي كلما عرضت عليها الأفكار والمعتقدات، كثرت عندها الابتكارات والناس فيها حياري مشرفين على القبول و المعاضدة عقائدهم متضاربة و أفكارهم متباينة، انتشرت فيهم رهبانية وتغلغلت فيهم

باطنية قامت حلقات الفكر في كل نواحي القطر يتزعمها العرفاء والعلماء، ونشأت دراسات أخلاقية قصدها العامة والخاصة، قد عمت الرياضيات الشاقة في سبيل حصول السيطرة على القوى الكونية و راح النيل في الكهوف للمراقبات النفسية و الانقطاع في الغابات لأتعاب الأبدان لترقي القوى الروحانية.

ميزة دستور الهند

دستور البلاد الذي أصبح ساري المفعول في ٢٦ يناير عام ١٩٥٠م يضمن جميع أنواع الحرية. السياسية و الدينية والاجتماعية والاقتصادية للمسلمين بالمواطنين الآخرين بالتساوي وكذلك يعتبر جميع المواطنين سواسية أمام القانون، و يحرم التميز بينهم على أساس الدين و الجنس و الطبقة و الطائفة و مكان الولادة، كما هي تضمن المساواة في إتاحة الفرصة في الأمور المتعلقة بالوظائف الشعبية العامة.

مولانا أبو الكلام أزاد:

هذه البلاد بجميع صفاتها المذكورة أعلاه أنجبت الشخصيات الفذة ذات الجوانب المتعددة التي حافظت على هذه الثقافة المشتركة و المركبة العريقة. منها : جواهر لال نهرو ومهاتما غاندي و منها مولانا أبو الكلام آزاد.

ميلاده:

ولد مولانا أبو الكلام آزاد في مكة المكرمة من أب هندي وأم عربية عام ١٣٠٦ هـ/١٨٨٨م[٢] وسمي باسم "محي الدين أحمد" [٣] و انتقلت الأسرة بعد مولده بسنتين من مكة المكرمة إلى مدينة كولكاته و كانت أمه بنت عالم فاضل من المدينة المنورة والتي انتقلت إلى رحمة الله بعد مجيئها إلى الهند بعام واحد. و كان والده قد مكث في مكة لمدة ثلاثين سنة.

دراسته:

و مولانا أبو الكلام آزاد لم يلتحق بمدرسة أو كلية أو جامعة و لم يحصل على شهادة رسمية من أي معهد من المعاهد العلمية، بدأ دراسته كعادة أسرته و كان والده حريصا على حسن تربية ابنه و تعليمه فلم يرسل ابنه مثل أبناء الآخرين إلى المدارس بل أخذ يعلمه هو بنفسه و كان يستدعي له المدرسين الماهرين في المنزل فكانوا يتولون تعليمه تحت رعايته وتوجيهه ثم استمر في دراسته بقراءة واسعة و فكرة وقادة و ظهرت علامات الذكاء والنبوغ عليه ففاق أقرانه و تخرج في عام ١٩٠٤م[٤].

ووفقا للتقاليد السائدة لمسلمي الهند منذ زمن قديم و التي لا تزال معمولا بها إلى حد ما حتى يومنا هذا، بدأ آزاد دراساته بتعليم

اللغة العربية و حفظ القرآن عن ظهر قلب و قراءة كتب الحديث والتفسير و غيرهما من العلوم الإسلامية بالإضافة إلى تعلم اللغة الإنجليزية و طبعا كانت الأردية لغته الأم، و انهمك في القراءة والكتابة و رغب في السياسة حتى أصبح أحد قادة مسلمي الهند آنذاك و كان له دور كبير في إيقاظ المسلمين من سباتهم العميق ودعوتهم الى حركة التحرير.[٥]

رحلاته:

وبدأ رحلاته إلى البلاد الإسلامية و العربية ابتداء من عام ١٩٠٨م فسافر إلى تركيا والبلدان العربية ليزيد معرفته في العلوم الدينية وإلمامه بالحركات الدينية و الوطنية في هذه البلاد كي يتعرف على تطوراتها وحنكة زعمائها و شخصياتها المشهورة، اتصل برجال الأزهر و وقف على آراء الأفغاني و محمد عبده واستفاد منهم الطرق التي يجب أن يسلكها في مجال توعية الشعب وبث روح الثورة في نفوسه ضد المستعمرين، وذلك من خلال الدروس و قراءة الصحف و الاستماع إلى الخطابة و من مصر اتجه إلى تركيا ثم إلى بلاد أوربا حيث زار فرنسا و تعرف على أسلوب الحياة فيها و كان لهذه الرحلات أثر بالغ في تكوين شخصيته فأصبح يعالج الأمور بالنظر إلى المنفعة الجماعية لا إلى المنفعة الشخصية و بذل جهودا جبارة في دعوة المسلمين إلى

الوحدة ذلك عن طريق مجلاته و صحفه التي كانت تصدر في اللغة الأردية[٦].

سياسته:

إمام الهند مولانا أبو الكلام آزاد أحد القادة و المصلحين الهنود الذين تركوا وراءهم تراثا عظيما في تاريخ بلادهم، والواقع أن حياة أبو الكلام أزاد حافلة بالمواقف الفذة لأنه كان رجلا موهوبا في فكرته و نظرته للدين و الحياة و متبحرا في العلوم الإسلامية مع إلمامه الكامل بالتراث الإسلامي، بجانب موهبته الخطابية و الكتابية و يستطيع أن يدرك ذلك كل من قرأ كتابات آزاد. إن الحديث عن مولانا أبو الكلام آزاد كزعيم سياسي لا ينسينا بأي حال اجتهاداته الدينية التي تبرزه كعالم من علماء الإسلام البارزين ، لقد كانت صحيفتا " البلاغ" و "الهلال" صوتا قويا لدعوته الإصلاحية ومناشطه الدينية التي أخذ يبث دعوته وآراءه على صفحاتها.

أبو الكلام كالمفسر:

لقد كانت امولانا أبو الكلام آزاد نظرة عميقة في القرآن الكريم، حصل عليها من خلال قراءته المستمرة للقرآن و مآثر السلف الصالح و هذا ما أقره في مقدمة ترجمته للقرآن.

و إذا أردنا أن نحدد اتجاه إمام الهند أبو الكلام آزاد في ترجمته و تفسيره للقرآن الكريم وجدنا أنفسنا أمام شخصية متعددة الجوانب واسعة المدارك بعيدة الأغوار جمعت من الأوصاف الخلقية و السمات الفكرية والمعارف الإنسانية ما لا يستطيع الباحث أن يجد لها مفتاحا يتوصل بها إلى أعماقها[٧].

الهند كمهد للديانات في كتاباته:

و إنه حاول في تقوية الأواصر بين الأديان المختلفة،داعيا إلى التسامح من أجل تمتع بحياة أفضل وقال :" الحقيقة أن الفكر الجديد للهند بعد الاستقلال آمن بأن أرض الهند وطن واحد و أن الهنود على مختلف طبقاته و طوائفه نسيج واحد.[٨]"

ظل مولانا آزاد ينظر إلى الوحدة الإسلامية الهندوسية بنظرة المهاتما غاندي، ويعتبرها هدفا و عقيدة سياسية. و لإثبات صحة ذلك الرأي استند إلى الآيات القرآنية وميثاق المدينة أيضا. ولم يكن التضامن الهندوسي والإسلامي فقط جزءً من تفكيره السياسي و إنما تغلب على أحاسيسه لدرجة أنه أعلن في خطاب بمدينة أغره ٢٠ أغسطس مخاطبا إخوانه المسلمين قائلا:

"لا جدال في أن كلمة محمد و سنته عليه السلام أفضل وأحق بعد كلام الله عز و جل. إنه

عقد معاهدة مع من لم يدخلوا في الإسلام من قبائل ضواحي المدينة المنورة، جاء في تلك المعاهدة كلمة " أمة واحدة" والمراد بكلمة " أمة" ما يراد بكلمة "نيشون" في اللغة الإنكليزية[٩].

ثم يقول مولانا آزاد مخاطبا جميع أبناء الوطن:

" المطلوب أن تؤدي هذه الانتصارات كلها إلى غاية وحيدة ويجب على كل مواطن ـ سواء كان مسلما أو هندوسيا أو سيخيا أو بارسيا- و هو شاهد مياه نهري " يمونا" و "جنجا" ونظر إلى سماء الوطن بنجومها الساطعة أن يتقدم و يحقق الانتصار[١٠]."

وكان مولانا آزاد قد أعلن في اجتماع " المؤتمر الوطني" الذي عقد سنتين قبل اجتماع " حركة الخلافة" في كانفور:

" أنه لا داعي ـ في الظروف الراهنة ـ إلى وجود منظمات هندوسية وإسلامية على حدة، إنما الضرورات تفرض على أن تكون هناك منظمة واحدة و هي " المؤتمر الوطني" و لا غير و لاشك في أن ثباته على ذلك طوال سنوات عمره، بعد ذاته إنجاز عظيم خاصة في بلد مثل الهند ذي

ثقافات متعددة و متضاربة في كثير من الأحيان[11]."

رفض مولانا نظرية القومية الإسلامية التي اعتبرت المسلمين والهندوس أمتين متفرقتين و بعد تحليل تلك النظرية تحليلا دقيقا و إثبات بطلانها سلط الضوء على استراتيجية الإمبرالية التي استهدفت تقسيم الشعب الهندي على الأسس الدينية و الطائفية و قال:

" الاعتقاد بأن المسلمين في الهند أقلية سياسية ومصالحهم وحقوقهم ستكون معرضة للأخطار في ظل النظام الديمقراطي، مغالطة ليست أية مغالطة أفدح منها. هذه المغالطة أدت إلى ظهور سوء التفاهم، له جوانب لا تحصى وخلقت في المسلمين ريبا عن مكانتهم في هذا البلد، وجعلت العالم كله ينظر إلى الهند بمنظار غير حقيقي و مناقض لما عليه أمرها بالفعل[12]."

" لو سمح لي الوقت لذكرت لكم تفاصيل الأمور وأزحت الستار عن وجوه حقائق و ظروف عملت وراء افتعال هذا الوضع، و عن الأيادي التي صنعته، الواقع أن هذا الوضع المأساوي ثمرة

سياسية " فرق تسد" التي تمارسها العقول الحكومية منذ خروج " المؤتمر الوطني" إلى حيز الوجود، وتقصد من وراءها استعمال الأمة المسلمة كأداة لاحتواء النهضة السياسية المتمثلة في حركة المؤتمر الوطني " نجد في مخطط النظام هذا أمرين بأهمية خاصة:"ينعكس أحدهما في التركيز على أن الهند موطن شعبين ـ هندوسي و إسلامي- يناقضان بعضا لبعض و يجعلان بالتالي المطالبة بشيء هي أسس الوحدة الوطنية دونما قيمة أو مبرر و يتجسد الأمر الثاني في إظهار المسلمين كأقلية قد تعرض وجودها لمشاكل حجة إذا ما أقيم في البلاد نظام حكم ديمقراطي[١٣]."

و في تفسيره للقرآن الكريم الذي قدمه تحت عنوان "ترجمان القرآن"، ناقش مولانا آزاد متحليا بقوة الحجة، وحدة العقائد الدينية وحدة الدين" التي أفسدها الاختلاف المحتوم في شرائع الأديان المختلفة الذي حتمه اختلاف البيئات الاجتماعية والثقافية والانقسامات الشكلية والمؤسسية التي أوجدها أتباع الديانات المختلفة و في تعليقه الرائع على سورة الفاتحة " التي وصفها مولانا آزاد بأنها المقدمة الطبيعية لدراسة القرآن[١٤]."

و كان مواطنو الهند غير المنقسمة يتعلقون في الواقع بنسل ممتزج، بيد أن الهندوس كانوا قد أقاموا تمييزا صناعيا بين الطبقات المتخلفة والطبقات العالية، و أما الاختلاف في العقيدة كان يوجد آنذاك كما يوجد الآن. و لا يقتصر هذا الاختلاف في المعتقدات بين طائفتي الهندوس والمسلم فحسب بل كان بين المسيحيين و اليهود و المجوس و السيخ أيضا، فهو يمكن أن نقول إن جميع الطبقات التي تدعي بالهندوس تختلف في المعتقدات فيما بينها[١٥].

" إن التاريخ الموحد الذي تمتد جذوره إلى أحد عشر عاما قد ملأ جوانب حياتنا الهندية بإيجابياته و لم يبق أي جانب من لغتنا و شعرنا وأدبنا و مجتمعنا و أذواقنا و أزياءنا وتقاليدنا وحياتنا اليومية، إلا ترك عليه طابعه، كنا نتكلم لغات شتى لكن صرنا نتكلم لغة واحدة و كانت تقاليدنا متباينة و لكن انصهرت كلها في بوتقة واحدة، وبرز منها قالب جديد، ويمكن أن نرى أزياءنا العتيقة في صور التاريخ القديمة، لكنها لم تعد على أجسامنا، إن هذا الرصيد المشترك ثروة وطنيتنا الموحدة و لا نرضي بالتراجع إلى ذلك الزمن السحيق، حين لم نكن شرعنا في الحياة

ئمة المتلاحمة، إن تواجد هنادك فينا يريدون
وموا بإحياء الحياة الهندوكية التي كانت سائدة
لف عام فليعلمن أنهم يحلمون حلما لا يتحقق
. وآخرون يريدون أن ينعشوا حضارتهم
معهم السالفين الذين أجلبوهما من إيران وآسيا
طى قبل ألف سنة لأقول لهم الأحسن أن
ا من غفلتهم لأن ذلك فكرة لا تكلل بالنجاح
تي بأي ثمر[١٦]."

سرح مولانا آزاد في خطبه مخاطبا القوى الطائفية
لإسلامية ودعاها إلى حضارة الهند المشتركة
ن يظهر أننا نسينا أفكار مولانا آزاد و تصوراته
القوى الطائفية و الانعزالية رأسها في طول البلاد
لا تشكل خطرا استقرار البلاد فحسب بل لهيكل البلاد
أيضا، إن الديموقراطية أشعة أمل في هذا السواد
هنادك و المسلمين و السيخ و النصارى و غيرهم من
الذين ليسوا بطائفيين و لكن يستطيع أن يضلهم
ـة الدين و العقيدة بسهولة.

ولانا آزاد:

"إن اليد الإلهية كانت قد قضت في حق الهند أن تكون أرضها محطا لقوافل مختلف الديانات و الحضارات و الأجيال الإنسانية[١٧]."

و كان يؤمن آزاد إيمانا قويا بأن القوى الطائفية و الرجعية لن تتمكنا من تغير قضاء الله المبرم، وزاد ذلك شدة إلى قوى عزمه، وكان مولانا آزاد دائما يعاضد القوى العلمانية والديموقراطية و لم يعدم اليوم و لا في ذلك الزمن رجال من الهنادك و المسلمين الذين كانوا يبثون الكراهة والاستنكار بين الناس مختفين وراء ستار الدين و الحضارة.إن هذا الضيق الفكري يعارض الدستور، و كان مولانا دائما يندد ذلك و طالما أشار إلى عواقبها الوخيمة الفظيعة للبلاد في خطبه و كتاباته، قال مرة في خطبته:

" أنا مسلم و اعتز بصفتي مسلما، وقد ورثت المثل العليا للإسلام التي تمتد عبر ثلاثة عشر قرنا، و لا أرضى أن يتلف جزء صغير منها، إن تعاليم الإسلام و تاريخه و علومه وحضارته رأس مالي، و من واجبي أن أحافظ عليها، وبصفتي مسلما لي شخصية متميزة في الدوائر الدينية والحضارية و لا أتحمل أن يتدخل

فيها أحد ولا يمنعني منه الإسلام، بل يرشدني فيه وإني أشعر بالاعتزاز بأني هندي، وأنا أشكل عنصرا على حدة للوطنية الهندية الموحدة التي لا يكتمل صرح عظمتها بدون وجودي وأنا عامل مهم أساسي لتواجدها و لن أتخلى من هذه الدعوى البتة[١٨]."

يرى مولانا آزاد أن الوطنية هي علمانية لا غير، فهي لا تكون هندوكية و لا إسلامية، ورد مولانا آزاد المثقفين الذين كانوا ينظرون إلى العلمانية والوطنية في ضوء التصورات الغربية الوافدة ردا مقنعا، فقال:

"إنه لا يجدر بكم أن تتأثروا بحضارة الغرب و ثقافته إلى حد أن تنسوا حضارة بلادكم العظيمة و كذلك لا يناسب أن تسدوا على أنفسكم كل منفذ حتى لا ينفذ إليكم شعاع من أشعة الحضارة و العلوم الغربية، و لا تنسوا أنها يمكنكم أن تحدوا الأشياء مجددو القوم و البلاد و لا يمكنكم أن تقسموا العلم والحضارة إلى خانات وجداول[١٩]."

إن البشرية كلها أعضاء أسرة واحدة و هي أسرة الله و كان يرى أن هدف الديانات كلها هو التغلب على المآثم و الذنوب، إن كل ديانة من الديانات تنمي المثل الخلقية وتروجها، و كان يعتقد أنه ليس بعيدا ذلك اليوم حين يئتلم الناس و يتلاحمون.

و قال :

" كما تتصورون أن ديانتكم أفضل الديانات و أمثلها فكذلك يرى الآخرون من ديانتهم فيؤكد بأنه لابد يتواجد في مثل هذه الحال التناصح والمؤدة، و المعلوم لدى الجميع أن عواقب الضيق الفكري وخيمة دائما[٢٠]."

و كان يرى أن الطائفيين سواء كانوا الهنادك أو المسلمين أو السيخ أو النصارى ليسوا أعداء البلاد فحسب بل أعداء الإنسانية كلها. لقد قاوم مولانا آزاد الطائفية من قبل المسلمين في جانب وفي جانب آخر عارض الطائفية الهندوكية، و كان يرى أن فقدان القوة السياسية أسفر عن غياب التناصح و المؤدة و الثقة بالنفس عن المسلمين و الهنادك، و الذي يشكل معوقا كبيرا في سبيل الوحدة القومية. لكنه لم يقنط و ظل يسعى للوحدة الوطنية وكان دائما على استعداد لتضحية جميع مصالحه، لقد كانت الحكومة الأجنبية تعمل على سياسة " فرق تسد" و كانت تعلم جيدا أنه لو توحّد أهل الهند

وتلاءموا و تخلصوا من داء العنصرية، فلا يمكنهم أن يحكموا طويلا على هذه البلاد[٢١].

يعتقد مولانا آزاد بأنه " قد قدر للهند أن تكون أرضها مهدا لأجناس بشرية متعددة و حضارات و ديانات متنوعة. لقد بدأت القوافل الإنسانية بألوانها الحضارية و الدينية العديدة، تمس أرض هذا البلد و الحال أن فجر التاريخ لم يبد رأسه من الأفق، و بعدئذ توالت تلك القوافل ترد إليها وتستغل ثرواتها و تجد مكانا بين أحضانها الفسيحة- و آخر تلك القوافل، كانت قافلة المسلمين، وكانت أرض الهند ملتقى حضارتين و شعبين متغايرين بعضا لبعض. ظل كل أحد منهما يسير في مساره الخاص لفترة معينة من الزمن، وفي نهاية الأمر تداخلا تحت أحداث التاريخ العظيمة. تاريخنا المشترك والممتد على أحد عشر قرنا، قد عمر الحياة الهندية الوطنية من كافة النواحي و نتلمس بصماته على اللغات والآداب و الشعر و الفنون و الذوق و الناس و السلوك و التقاليد، وعلى غيرها من مستلزمات الحياة الاجتماعية هذا التاريخ المشترك صهر قالب القومية الهندية الممتدة و الآن نحن - الهندوس والمسلمون - عناصر تلك القومية غير قابلة للتفكك[٢٢]."

و أشار مولانا في " ترجمان القرآن" إلى أن الديانات قبل نزول القرآن كانت منقسمة إلى الإيمان بالله و هذا إيمان حقيقي للخواص، و إلى إيمان مجازى لعامة الناس، وذكر ضمن الحديث

إن البشرية كلها أعضاء أسرة واحدة و هي أسرة الله و كان يرى أن هدف الديانات كلها هو التغلب على المآثم و الذنوب، إن كل ديانة من الديانات تنمي المثل الخلقية وتروجها، و كان يعتقد أنه ليس بعيدا ذلك اليوم حين يئتلم الناس و يتلاحمون.

و قال :

" كما تتصورون أن ديانتكم أفضل الديانات و أمثلها فكذلك يرى الآخرون من ديانتهم فيؤكد بأنه لابد يتواجد في مثل هذه الحال التناصح والمؤدة، و المعلوم لدى الجميع أن عواقب الضيق الفكري وخيمة دائما[٢٠]."

و كان يرى أن الطائفيين سواء كانوا الهنادك أو المسلمين أو السيخ أو النصارى ليسوا أعداء البلاد فحسب بل أعداء الإنسانية كلها. لقد قاوم مولانا آزاد الطائفية من قبل المسلمين في جانب وفي جانب آخر عارض الطائفية الهندوكية، و كان يرى أن فقدان القوة السياسية أسفر عن غياب التناصح و المؤدة و الثقة بالنفس عن المسلمين و الهنادك، و الذي يشكل معوقا كبيرا في سبيل الوحدة القومية. لكنه لم يقنط و ظل يسعى للوحدة الوطنية وكان دائما على استعداد لتضحية جميع مصالحه، لقد كانت الحكومة الأجنبية تعمل على سياسة " فرق تسد" و كانت تعلم جيدا أنه لو توحّد أهل الهند

وتلاءموا و تخلصوا من داء العنصرية، فلا يمكنهم أن يحكموا طويلا على هذه البلاد[٢١].

يعتقد مولانا آزاد بأنه " قد قدر للهند أن تكون أرضها مهدا لأجناس بشرية متعددة و حضارات و ديانات متنوعة. لقد بدأت القوافل الإنسانية بألوانها الحضارية و الدينية العديدة، تمس أرض هذا البلد و الحال أن فجر التاريخ لم يبد رأسه من الأفق، و بعدئذ توالت تلك القوافل ترد إليها وتستغل ثرواتها و تجد مكانا بين أحضانها الفسيحة- و آخر تلك القوافل، كانت قافلة المسلمين، وكانت أرض الهند ملتقى حضارتين و شعبين متغايرين بعضا لبعض. ظل كل أحد منهما يسير في مساره الخاص لفترة معينة من الزمن، وفي نهاية الأمر تداخلا تحت أحداث التاريخ العظيمة. تاريخنا المشترك والممتد على أحد عشر قرنا، قد عمر الحياة الهندية الوطنية من كافة النواحي و نتلمس بصماته على اللغات والآداب و الشعر و الفنون و الذوق و الناس و السلوك و التقاليد، وعلى غيرها من مستلزمات الحياة الاجتماعية هذا التاريخ المشترك صهر قالب القومية الهندية الممتدة و الآن نحن - الهندوس والمسلمون - عناصر تلك القومية غير قابلة للتفكك[٢٢]."

و أشار مولانا في " ترجمان القرآن" إلى أن الديانات قبل نزول القرآن كانت منقسمة إلى الإيمان بالله و هذا إيمان حقيقي للخواص، و إلى إيمان مجازى لعامة الناس، وذكر ضمن الحديث

عن الأديان الهندية أن المعرفة الإلهية في هذا البلد تفاوتت بتفاوت الانتماءات الطبقية و للتوصل إليها كان المطلوب من عامة الناس عبادة الأصنام، و من الخواص الإنابة إلى الله، ومن أخص الخواص إدراك حقيقة وحدة الوجود. و بعد الإشارة إلى أن التصورات اليونانية الإلهية أقرب من التصورات الهندية من غيرها، يقول مولانا عن التصورات القرآنية إنه لا يبرر تمييزا بين العوام و الخواص على أسس الحقيقة و المجاز و التشبيه، بل أنه يدعو الناس كلهم لعبادة الله الواحد و بطريق واحد. و للتوصل إلى أعلى مدارج الإيمان يفتح بابا واحدا للجميع، و يستنتج بدراسته المهمة في النظرية البراهمة بأن النزعة الدينية في الهند تتألف من خليط التفكير و العمل و التسامح، و في إطارها النظر من العام متجاوبة مع عقائد أخرى بعيدا عن التشدد و المضايقة. فالخواص من البراهمة أقبلوا على التوحيد تاركين الوثنية و الشرك لعامة الناس، مما خلق المجال لجميع الأنواع من المعتقدات والتصورات، و وفر تربة خصبة لازدهار عقائد بألوان عديدة ومتباينة. و لأجل ذلك لم يسبب اختلاف العقائد نشوب حروب وصراع في الهند مثلما كان الأمر في المناطق الأخرى من العالم، و بالعكس من ذلك ساعد التعدد في العقائد في صياغة نسيج التوافق والتضامن بين اتباع الديانات المختلفة.

ولكن مولانا آزاد يرى أن علاقة التسامح بين العقائد والنظريات الدينية إذا كانت جديرة بالنقد، فإن استقامة الرأي وصلابة العقيدة و الفكر أيضا فضائل قيمة عنا، ثم يقسم هذه الفضائل إلى أنواع، و يحكم في كل منها بأحكام خاصة، و يصر على ضرورة سحب فواصل بينهما، و يقول إنه عند ما استبانت سلامة و فضيلة عقيدة و عمل من العقائد وللأعمال المتعددة، وتكون لحد توصلنا إلى نتيجة بشأنها، عندئذ يتوجب الاعتصام بها والثبات عليها اعتقادا و عملا و سيعتبر تبرير أية مرونة في ذلك ضعفا في الإيمان واضمحلالا في العقيدة. و يضيف إليه قوله بأنه في حالة اختلاف الآخر في الرأي ـ ينبغي أن نضمن له حرية الاختيار، و ذلك هو التسامح بالمعني الواقعي للكلمة[٢٣].

ثم يقول مولانا آزاد إن عدم سحب نمط فاصل بين هاتين الحالتين الثبات على عقيدة دينية بعد استبانة حقها، و الاعتراف بحق الآخر في الخلاف ـ يؤدي في كثير من الحالات إلى الزيغ عن طريق وسط و يعقب بأن صلابة العقيدة عامة تأتي مقترنة بالتطرف و التشدد، و تتسبب في الإغراء على الآخرين، وتجريحهم في أعمالهم ومعتقداتهم، بينما يؤدي التجاوز عن خط الاعتدال في التسامح إلى التنحية عن إصابة الرأي وسلامة الفكر ويخلق ريبا و شكوكا و يكفينا مثال لذلك أن العصب وقسوة الرأي في الأمومة الدينية كان لها تأثير في اندلاع حروب دامية في

الأزمنة الغابرة، في الإفراط في التسامح و الإغماض، جعل العقائد الدينية في الهند، تصطبغ جميعا بصبغة الخرافة والجاهلية، و بعد الإشارة إلى اعترافات المؤرخين بتلك الحقائق[٢٤]، يتوجه إلى القرآن ويصف ميزاته بالكلمات الآتية:

" لم يبرر القرآن أي نوع من موقف المصلحة في العقيدة فيما اتصل الأمر بالذات الإلهية ... أنه يصون التوحيد و التنزيه من جميع الملابسات ومع ذلك لا يمنعنا عن التسامح مع الآخر في حال من الأحوال[٢٥] ."

إن أبو الكلام آزاد ألقى في تفسيره" ترجمان القرآن " في ثنايا تفسير سورة الفاتحة نظرة طويلة على قضايا عديدة و من أهمها الأيمان بالله وصفات خالق الكون و حقيقة الربوبية و التوحيد و المعاد و الرحمة الإلهية و مظاهر الطبيعة و الحكومة الإلهية وعلاقة الحب بين الخالق و المخلوق و وحدة الأديان و صفة العدل الإلهي و إلى جانب هذه المباحث قام أبو الكلام بتحليل الدين المسيحي و مكانته بين الأديان الأخرى و كتب بحثا يسلط الضوء على دراسة مقارنة بين القرآن و الإنجيل و هذا المبحث ينم عن أن أبو الكلام كان يتضلع في مبادئ و تعاليم الأديان الأخرى، و كان يلم بالحقائق التي تربط جميع الأديان في سلك واحد، فعلينا أن نستفيد من آرائه حق الاستفادة لأنه كان من القوميين المتحمسين

لفكرة وحدة الأديان و أن هذا النهج لأفكاره قد أثار الشكوك حول عقيدته الإسلامية وانتقد البعض كان يعتقد أنه لا يتوجب على الإنسان أن يؤمن بأن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان آخر الرسل أو كانت له أية فضيلة على المرسلين الآخرين وكذلك رأى البعض أن أبا الكلام يعتقد أن الشريعة المحمدية كانت سارية المفعول لزمن النبي صلى الله عليه وسلم فقط.

يقول أبو الكلام عن وحدة الهنادك و المسلمين في الهند:

إذا أتى ملك من فوق سبع سماوات ويعلن من منارة قطب أننا نحصل على الاستقلال بين عشية و ضحاها بشرط انفصام الوحدة بين الهنادك و المسلمين في وطني، فلا أرضى بالاستقلال بل أفضّل الوحدة والاتحاد عليه. لأننا إذا تأخرنا في الحصول على الاستقلال السياسي سيكون ضررا للهند، ولكننا إذا ابتعدنا عن الوحدة و بذرت بذور الشقاق و النفاق بيننا فيكون خسارة للإنسانية جمعاء"[٢٦].

" إنني مسلم إنني لفخور بأنني عشت التقاليد الإسلامية الرفيعة و الفخمة التي مضى عليها ثلاثة عشر قرنا. إنني لفخور بكوني هنديا -

إنـي جـزء لا يتجزأ من الوحدة التي لا تقبل التقسيم وإنني ركن وعمود هام في هذا البناء الفخم و إن هذا البناء الفخم غير مكتمل من دوني.. . كما يحق لأي هندوكي أن يقول بفخر إنه هندي و يؤمن بالديانة الهندوكية، كذلك يحق لنا أيضا أن نقول بمثل هذا القدر من الفخر أننا من أبناء الهند ونؤمن بالإسلام إيمانا لا يتزعزع ... لقد صاغتنا حياة الونام والانسجام التي مرت عليها آلاف السنين في قالب القومية المتساوية. لقد اكتمل القالب الآن و قد وضعت الطبيعة ختامها عليه.. ولا يمكن تصور أي خطة و مكيدة شريرة لإحداث الشقاق و الفصل بحيث يلحق أي ضرر بهذه الوحدة القومية والوطنية[٢٧].

و قال مولانا يوم ٢ أكتوبر ١٩٤٧م من إذاعة عموم الهند، في خطبة وجيزة ألقاها بمناسبة عيد ميلاد "مهاتماغاندي"، و شكا مولانا إلى الناس أن الهند كانت مهدا للديانات المختلفة أمس ولكن اليوم هذا المهد يتفكك وعانقت الهند المذاهب المختلفة. و قال:

" اليوم ، لا يعيش أي مسلم بأمن وسلام في شرق ولاية بنجاب وكذلك الهندوس و السيخ في

غرب هذه الولاية و في دلهي،أقدم هذه الكلمات إلى حضراتكم جالسا في غرفة في مبنى الإذاعة، وهذه الكلمات تدل على أن الحوادث التي وقعت خلال أسبوعين كيف ألقت الرعب في كل مواطن حقيقي من الهنود . السؤال هنا ماذا حدث معنا وإلى أين نسير! كنا فى الماضي القريب متطلعين إلى حرية البلاد تدعمنا سائر العالم . وضعنا شتى الخطط لهند مستقلة، كان من أحلامنا الوصول إلى المستويات الرفيعة للحياة الوطنية. فأين نحن الآن ؟ هل يمكن أن تلوحنا صورة تلك الأيام؟ وهل يمكن أن نشم رائحة الأيام الماضية؟[٢٨]"

قال مولانا أبو الكلام آزاد في خطبة ألقاها في جامعة علي كره الإسلامية، يوم ٢٠فبرائر ١٩٤٩م:

"انتم مواطنو دولة الهند المستقلة التي عزمت على أنها تقوم بتطوير حياتها السياسية والاجتماعية على النهج العلماني و الديمقراطي. وروح الدولة العلمانية و الديمقراطية هي حرية الفرص لكل فرد بغض النظر عن النسل و الدين والطبقة و المجتمع[٢٩]."

و قال في خطبة بمناسبة انتخابه كرئيس الحزب المؤتمر مرة ثانية في عام ١٩٤٠م :

"الآن مضى أحد عشر قرنا منذ أن دخل الإسلام في الهند، لذلك يجب أن يكون للإسلام حق فيها مثلما توجد للديانات الهندية الأخرى، إذا كانت الديانة الهندوسية دين سكان الهند منذ آلاف سنة فيعتبر كذلك الإسلام ديانة لسكان الهند لآلاف سنة ماضية. و يمكن أن يقول هندوكي شرعيا إنه هندي و مؤمن بالهندوسية فبناء على هذا المنطق أقول إن مسيحا هنديا أو تابع أي دين آخر. و له حق كامل أن يدعي بأنه هندي و مؤمن بديانته الخاصة.[٣٠] "

أيد مولانا أبو الكلام آزاد فكرة التسامح الديني برحابة صدره لأنه كان يؤمن بأن كل الأديان في جوهرها تتشابه في تعاليمها كما أوضح في تفسيره للقرآن الكريم قائلا إن هذا أمر صريح في القرآن. ليس هناك أي قوم أو جزء من العالم لم يأت فيه رسول و بهذا يتوجب علينا إما أن نقبلهم جميعا أو نرفضهم جميعا لكن جميعهم رسل الإله الواحد وهو ذات الله أو " برميشور". والهدف الرئيسي للدين هو عدم التقسيم و الوحدة و لمّ شمل بني آدم الذين بدأوا ينقسمون إلى طوائف شتى على أسس عرقية وجغرافية

ولغوية و اجتماعية و اقتصادية. من الممكن أن نقسم الناس إلى كل هذه المجموعات لكن هناك حقيقة واحدة و هي تواجد العلاقات الحميمة بين الناس التي لا يمكن قطعها، أنتم جميعا من خلق الله الواحد سبحانه و تعالى مرتبطين بجلاله و كرمه. فهذا الربط يبطل كل الخلافات بين الناس في جنس واحد ويجمع بين القلوب في سلام و وئام، هذا ما يخلق الشعور بأن العالم كالبيت الواحد، و أن سكان الأرض كلها أسرة واحدة و خلق إله واحد. والذي يضايقه بالخصوص هو علمه بأن هذا المرض بدأ يتسرب في حياتنا الوطنية مدمرا الروح الوطني و عاداتنا وتقاليدنا.انسجامه الإرث تمازجا بين التراث الإسلامي والتراث الهندي. ومع اعتزازه بانتماءه للهند في هذا التراث[٣١].

و على الدول الأخرى تستفيد من التراث الهندي ويمكننا القول إن التسامح الديني ميزة من ميزات الحضارة الهندية القديمة و نحن نعيش على هذا النمط من آلاف سنة. ومن ناحية أخرى نجد أنه يتواجد اختلاف الرأي والعمل في الدول الأخرى مما يؤدي إلى اندلاع الحروب و سفك الدماء، لكن هنا في الهند يتم حل الخلافات بطرق سلمية لتسوية النزاع. قد سمحت الهند لجميع المعتقدات والثقافات بأن تزدهر و تنمو بدون أي ضرر وفقدان كذلك سمحت الهند للمدارس الفكرية العريقة لكل من الفيدانتا و الوثنية والإلحاد بأن تتطور جنبا بجنب. و اعترف كثير من مفكري العالم الحديث

بأن هذا هو رسالة الحضارة الهندية القديمة العظيمة التي يجب على العالم أن يتعلمها[٣٢].

ألقى مولانا أبو الكلام خطبة وجيزة أمام اجتماع عام للمجلس الهندي للعلاقات الثقافية يوم ١٤ /فبراير عام ١٩٥٨م وقال:

" ربما يتساءل بعض أصدقائي، ما الحاجة إلى تشكيل هذا المجلس؟ وهذا السؤال طبيعي والأسباب أيضا واضحة. وأقول لكم أن تتذكروا أن الهند نالت استقلالها و حريتها في ظروف أدت إلى تقسيمها و خلق الكراهية و الطائفية في النفوس. قتل عدد كبير من الهندوس و السيخ وحكموا بإعدام و تلقى عدد كبير من المسلمين نفس المصير في الهند. عدد كبير من اللاجئين عبروا الحدود ودخلوا الهند. و كل ما حصل هو واضح تماما أمام العالم لكن أقول بالأسف إن دولة باكستان الحديثة السن صاحت فقط بقصة من طرف واحد وبدأت حملة الدعاية ضد الهند.فهناك انطباع في الدول الإسلامية بأن تقسيم الهند كان على أساس الطائفية و أن الهند أصبحت دولة هندوسية فقط. و على

ضـوء هـذا بـدأت الـدول الإسـلامية تصـدق بـأن المسلمين القليلين الذين بقوا في الهند لم يكن لهم أي حرية دينية ومدنية[٣٣].

و مـع ذلـك يسـرني أن أخبـركم بأنـه بعـد تأسيس هذا المجلس قد أصبح الوضع يتحسن والآن قد عرفت كل الدول الإسلامية أن هذه مجرد دعاية الباكستانيين و تعصبهم. كانـت هـذه الدعايـة مبنـية علـى الأكاذيـب التـي لا أسـاس لهـا مـن الصـحة. وكذلك عرفت الدول الإسلامية أن الحكومة الهندية ليسـت حكـومة هندوسـية فحسـب بـل هـي حكـومة وطنية علمانية تضم كل الهنود[٣٤]."

الخاتمة:

و بعـد دراسـة كـتابات مـولانا آزاد، نصـل إلـى نتـيجة أن تصـوره للهند كمهد للديانات كـان مـركبا من حـب الـوطن و حـب الإنسـانية فيسكب جل اهتمامه على حرية الشعب الهندي و سعادته، لأنـه كـان يـريد أن يخـدم كافـة الإنسانية في مسكنه الخاص بأسلوب خاص، و كان يدرك هذه الحقيقة أنه لا يمكن استقرار الأمن في أي ناحية من نواحي العالم في هذا العصر بدون وجهة نظر عالية. ولا يمكـن تحقـيق أي عمـل جـاد بخصـوص سـعادة سـكان الـبلاد

ورفاهيتهم، و اعتبر مولانا آزاد جميع العالم أسرة الله ت
تصور الإسلام للحياة، فدعا جميع الطبقات و الطوائف إ
والتضامن في الهند، يكافح عمليا لسعادتها السياسية وا
والتعليمية والخلقية على أسس من الحرية والمساواة والإ
موقفه هذا يحافظ على أغلى مصالح الهند الجديدة كما
على أسس أهداف العالم الإنسانية في العصر الراهن.

و كان المسلمون و الهندوس و السيخ و البا
والمجوس عوامل هذه القومية المتحدة و عناصرها عل
بغض النظر عن التباين بينهم في العقيدة و الثقافة مهما اء
بينهم بوراثتهم التقليدية ومهما حاولوا للاحتفاظ بتلك الورا
طريق ممكن. وفي الواقع إن الهند باكورة فيها أزهار متنو
لها أولاد مختلفون و أطفال كثيرون يلعبون في مهدها.

نرى أن أكبر خدمة قام بها مولانا آزاد تتجلى ب
روح الدين هي روح وئام و انسجام، إن روح الدين ه
يتعارف بها بعضهم البعض، فالروح للدين هي روح الـ
روح الدين هي روح التضحية بالنفس لمصالح الآخرين،
الدين هي روح الإيمان بالوحدة بل هي روح الإيمان بوحـ
كلها. و هذا درس يجب أن نتعلمه كافة الجماعات الدينية و
به كل من يريد تشكيل و إنشاء فئات ومجموعات صغير

على القضاء على وحدة حياتنا بتشكيل فرق وفئات على أساس اللغة أو على أساس الإقليم والولاية أو على أساس القبيلة و الطائفة أو على أساس الدين. إن أكبر داء في بلادنا في هذا الوقت هو تواجد حكومات إقليمية صغيرة فنحن فى حاجة ماسة إلى توحيد صفوف هذه الولايات الصغيرة المتشتة لتشكيل بلد واحد قوي ، ولتحقيق هذا الهدف النبيل لا يلزم لأحد أن يقطع صلته بالديانة السيخية أو بدين الإسلام وبالهندوكية أو الزرداشتية والمجوسية وبل ينبغي له أن يكون خادما لهذه البلاد أولا وخادما للبشرية جمعاء ثانيا. عندئذ يتسنى لنا القول بأنه مسلم صادق أو هندوكي صادق أو مسيحي صادق أو سيخي صادق أو مجوسي وزرداشتي صادق. وهو الدرس الذي نتلقاه من كتابات أبو الكلام آزاد بوضوح.



المراجع:

- رحاب المعرفة (عدد خاص عن الهند و الثقافة الهندية) المجلد ٤، العدد ٢٠ مارس ـ أبريل ٢٠٠١م، تصدر من باب سويقة ١٠٠٦ ، تونس، ص ٩

[٢] ـ مجلة " ثقافة الهند" عدد ممتاز عن مولانا أبو الكلام آزاد، الجزء الأول، المحلد ٣٩، العدد ١ـ ٢، ص ٤٤

[٣] ـ المرجع السابق، ص ٣٢

[٤] ـ المرجع السابق، ص ٣٢

[5] ـ مجلة الآداب العربية، قسم اللغة العربية و آدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهى، ٢٠٠٢م ص ١٣٢

[6] ـ مجلة " جامعة " الشهربة (الأردية) المجلد ٩٧، العدد ١ـ٣، يناير ـ مارس ٢٠٠٠م، تصدر من الجامعة الملية الإسلامبة، نيو دلهى، ص ٦١ ـ ٦٢

[7] ـ مجلة " صوت الشرق" العدد ٤٣١، نوفمبر ـ ديسمبر ٢٠٠٢م، تصدر القاهرة، مصر، ص ١٧

[8] ـ أبو الكلام آزاد : أزادي هند، "India Wins Freedom" ترجمة اردبة: رئيس جعفري لاهوري، حق بك اكيدمى، ١٩٥٩م ص ١٣٢

[9] ـ أبو الكلام آزاد : "خطبات آزاد" تحقيق : مالك رام ، ساهتيه اكاديمي، نيو دلهي، ١٩٨٥، ص ٥١

[10] ـ المرجع السابق، ص ٥٧

[11] ـ المرجع السابق، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨

[12] ـ المرجع السابق، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١

[13] ـ المرجع السابق، ص ١٢٩

[14] ـ مجلة " صوت الشرق" العدد ٤٠٢، يناير ـ فبراير ١٩٩٨، ص ٦

[15] ـ مجلة " ثقافة الهند" عدد ممتاز عن أبوالكلام آزاد: ص ١٠٢ ـ ١٠٣

[16] ـ أبو الكلام آزاد: خطبات آزاد، ص ٢٩٩

[17] ـ المرجع السابق، ص ٢٠٥

[18] ـ المرجع السابق، ص ٢٩٧

[١٩] - مولانا آزاد :" تحريك نظم جماعت" تحقيق : أبو سلمان شاهجهانبوري، نذير سنس ببليشر، ١٩٧٨، ص: ٢١

[٢٠] - أبو الكلام آزاد: بنيادي تصورات قرآن، تحقيق: د/ سيد عبد اللطيف، اكاديمي آف اسلامك استديز، حيدر آباد دكن، ص ١٢١- ١٢٣

[٢١] - مجلة " ثقافة الهند" عدد ممتاز عن أبوالكلام آزاد: ص ١٢٤

[٢٢] - أبو الكلام آزاد:" خطبات آزاد" ص ٢٩٨

[٢٣] - ضياء الدين الإصلاحي:" مولانا أبو الكلام آزاد" دار المصنفين اكيدمي، اعظم كره، الهند، فروري ١٩٩٨، ص ١٥٣

[٢٤] - المرجع السابق، ص ١٥٤- ١٥٥

[٢٥] - أبو الكلام آزاد:" ترجمان القرآن" (سورة فاتحة وحواشى)، ج ١، ساهتيه اكاديمى، ١٩٨٠، ص ١٤٠

[٢٦] - أبو الكلام آزاد :" خطبات آزاد" ص ٢٠٥

[٢٧] - India' s Maulana :Abul Kalam Azad, Vol II, Edited by : Syeda Saiyidain Hameed, ICCR, 1990, P 161

[٢٨] - Ibid, p 166

[٢٩] - Ibid, P 190

[٣٠] - Ibid, p 162

[٣١] - مولانا أبو الكلام آزاد: " بنيادي تصورات قرآن": تحقيق: د/سيد عبد اللطيف، ص ١٢١- ١٢٣

[٣٢] - India' s Maulana :Abul Kalam Azad, Vol. II, Edited by · Syeda Saiyidain Hameed,, P 192

[٣٣] - Ibid, P, 213

[٣٤] - Ibid, 213

الهند كمهد للديانات في ضوء كتابات مولانا أبو الكلام آزاد

ـ أحمد صهيب الصديقي الندوي

المقدمة:

يشكل الاتحاد القومي، والانسجام الطائفي، والتسامح الديني، أساس النمو والازدهار، لكل قوم يعيش على هذا الكوكب الأرضي، كما أن التضامن بين الناس ينفخ فيهم روح التقدم والاستطلاع، وروح المغامرة والابتكار، روح الرقي والازدهار، مع أن الاختلاف والتحزب، وتشتت الشمل، وتفرق الجمع، لا تدل إلا على الزوال والتدهور، وتشير إلى أن صاحبها أوشك على الانقراض والنهاية.

وإن تربة الهند ثبتت خصبة، أكثر من غيرها، لنشوء ونمو كثير من الديانات، إنها ولدت، كما آوت وربت أيضا، العدد الكبير منها، أصدرت واستوردت، حتى عادت مهدا للديانات، حيث يوجد

فيها إتباع الإسلام، والمسيحية، والهندوسية، وديانة بدها، وديانة جينا، وديانة سيخ وغيرها من الديانات الأخرى.

نظراً إلى هذه الكثرة الدينية، ووقوع الحوادث والاشتباكات الطائفية والدينية، قام عدد كبير من مفكري الهند لإيجاد التوافق والتطابق والاتحاد بين أهالي الهند، مثل كرم تشاند غاندي، وجواهر لال نهرو، ومولانا أبو الكلام آزاد. وبذل هؤلاء كل مجهوداتهم في سبيل حرية الهند وتضامن أهلها.

كان أبو الكلام آزاد عالما ومثقفا كبيرا، إنه مشى فى هذا المضمار، لكنه تنحى واتخذ سبيلا بل سبلا أخرى، لتحقيق نفس الغرض، ونجح، وأحرز قصب السبق فيها.

اتخذ آزاد ثلاثة طرق للوصول إلى الهدف. (هدف إيجاد التوافق والتضامن بين أهالي الهند).

(١) فلسفة الدين، يعني الدين واحد، استدل بها على وجوب الاتحاد بين الناس.

(٢) أصل الديانات الهندوسية، بهذا الأصل أراد أن يأتي بجميع الهند إلى منصة واحدة،

(٣) ضرورة قومية،

وسنتحدث عن هذا الطرق بشيء من الإسهاب والتفصيل في السطور الآتية.

عبقرية آزاد:

لم تفتقر الهند، يوماً من الأيام، إلى الرجال العظماء، رجال العلم والبصيرة، رجال الفن والسياسة، رجال الحكم والسيادة، كما أنها ولدت في كل عصر من العصور رجالا، زادوا من عزها، وقدرها، وشأنها، ووصلوا بها إلى قمة الفخر، والعز، والعظمة، وجعلوا اسمها يتلألأ في صفحات التاريخ، تلألأ القمر في الظلام الحالك.

شخصية آزاد:

إلا أن النصف الأول من القرن العشرين، كانت الهند فيه أحوج ما تكون إلى شخصية تجمع بين العلم والسياسة، والفكر والعمل، شخصية تستطيع أن تنفخ في رجال الهند روح الحرية والاستقلال، روح الكفاح والنضال، روح الزود عن أرضهم وبلادهم، كما كانت الهند منذ قرن ونيف ترزح تحت كابوس الاحتلال الإنجليزي، تئن وتصرخ، تتألم وتتفجع، تبكي وتنوح، دون[1] أن يكون لها مجيب أو مغيث.

ففي هذا المناخ الفاسد المفسد، المبكي المحزن، شاءت الرحمة الإلهية أن تجود برجل، يبدد الظلام السائد في ربوع الهند، ينير السبل، يهدي الناس، ويأتي بهم إلى منصة واحدة، ستفتخر الهند إلى الأبد بأنه مشى على أرضها رجل اسمه " أبو الكلام آزاد".

ولد هذا المجاهد المقدام سنة ١٩٨٨م بمكة المكرمة.[١]

ومن طرائف الدهر أن أسرة آزاد شدت رحالها قبل ولادته بعدة سنوات إلى مكة المكرمة. وأقامت فيها، لكن فردا من أفرادها لم يكن إلا للهند، فساقها القدر كرة أخرى إلى الهند. وقد انكسرت ساق ابيه وهو في جدة، فأشار عليه الأطباء والأصدقاء بالذهاب إلى الهند، حيث العلاج متوفر، فسافر إلى الهند واستقر بأسرته في كولكتا سنة ١٨٩٠م. ولم يكن هذا إلا مبررا أوجده القدر لاستقدام آزاد إلى أرض تحتاج إليه.[٢]

بدأ هذا المجاهد تعليمه في الحرم الشريف.[٣]

اهتم أبوه كثيرا لتعليمه وتثقيفه، وحينما رجعت أسرته إلى الهند، استقدم له كبار الأساتذة لتربيته. كما كان يؤمن إيمانا عميقا في مناهج التعليم القديمة، والروايات الصوفية الغارقة في القدم. آزاد يقوم " اهتم والدي بتعليمي في داره، ولم ير أن يرسلني إلى أي مدرسة، بالرغم أنه كانت هناك " مدرسة كلكتا العربية

الإسلامية". لكن والدي لم يعجبه هذا، فعلمني بنفسه في بداية الأمر، ثم استقدم لي العديد من المدرسين لتدريس العلوم المختلفة. وقد حرص دائما كل الحرص على أن أتلقي كل فن من أساتذته المتخصصين" [٤]

بعد أن استوعب كل العلوم الرائجة في أوساط المسلمين ذلك العصر، توجه إلى تعلم اللغة الإنجليزية.[٥]

صار آزاد عرضة للاضطراب الذهني، والقلق الفكري، لتأثره العميق، بالخلافات والنزاعات بين المسلمين، وبين الديانات الأخرى، وبين الفرق الإسلامية المختلفة، وأدى هذا الاضطراب إلى زعزعة إيمانه، وزلزلة عقيدته السامية، وفي هذه المرحلة، اختار لنفسه لقبا وهو " آزاد" يعني الحر، وعن سببه قال: "للإظهار لأنني لم أعد موثوقا بالعقائد المتوارثة"[٦] بقى هذا الاضطراب لعدة سنوات، ثم أنار الله طريقه وهداه إلى سواء السبيل.

رحلته إلى الخارج:

قام آزاد بزيارة مصر، وتركيا، وفرنسا، وشام، وفلسطبن سنة ١٩٠٨م كانت لهذه الرحلة أثر عميق في ذهنه وفكره

وعاطفته. حيث ازداد بها إيمانه بالحرية والاستقلال الوطني، والمكافحة والنضال ضد الإنجليز، والوحدة القومية.[٧]

وتمتاز هذه الرحلة بناحية إنها تسببت فى لقائه مع جمال الدين أفغاني ومحمد عبده في مصر، حيث كانا منشغلان في إصلاح القوم والمجتمع، والدعوة والإرشاد. يقول الدكتور عبد المنعم النمر: " وقد حضر آزاد إلى مصر وآراء الأفغاني ومحمد عبده تفعل فعلها في النفوس، ووقف على هذه الآراء، التى كانت تتخذ من الدين قاعدة لتحرير البلاد، وحكمها حكما شوريا، وعرف الطريق الذي كان يسلكها الأفغاني ومحمد عبده في تربية الشعب، وبث آرائهما الثورية، خلال الصحف والدروس والأحاديث، كما عرف ما تحمله الأفغاني في سبيل آرائه، سواء من رجال الدين الجامدين، ام من المستعمرين وعملائهم من الحكام المسلمين".[٨]

مجلة " الهلال":

يقول الدكتور عبد المنعم النمر :" كما أخذ بعد عودته من السفر إلى الخارج في إصدار مجلة " الهلال" ومن على منبرها أخذ يدعو المسلمين إلى التمرد العقلي، والسياسي، ويوقظ بينهم الروح الدينية، ويحمل على الجمود والتقليد بين العلماء، كما يحمل على البدع والخرافات، ويبين للمسلمين حقيقة دينهم، ونظرته

للحياة، وتشريعه الكامل لكل أحداثها، ودعوته إلى أن يعيشوا أحرارا، وينفضوا عن كاهلهم أعباء الذل والاستعمار"[٩].

قام بكل هذه الإنجازات والمغامرات مع أنه لم يجاوز الثلاثين بعد. قام بمهام الكبار في صغر سنة، كان يحمل رأس الشيوخ في سنة الباكر، أجرى مجلة " الهلال" وهو يناهز أربع وعشرين عاما من عمره. اشعل من خلال صفحات " الهلال" الجذوة الإيمانية الخامدة في النفوس، وأضرم نيران الحب للحرية والاستقلال، والوحدة والوفاق، وايقظ في أهالي الهند الغيرة الدينية، ودعاهم إلى الجهاد والكفاح، والجود بالنفوس والأموال. ونبذ الراحة والدعة، وعيش الذل والهوان، في سبيل طرد الإنجليز من أراضي الهند، وتطهيرها من أقدامهم القذرة.

رئاسة المؤتمر القومي:

صار رئيس المؤتمر القومي وهو لم يجاوز ٣٥ عاما من عمره، بينما تراوحت أعمار رؤساء المؤتمر فوق الأربعين.

كان ثابتا راسخا في آرائه وأفكاره، لم تكن لتتغير وتتبدل، أو تتأثر بمجرى الحوادث، إن الفكرة التي أظهرها سنة ١٩١٤م قام وثبت عليها حتى آخر عمره. وأعلن الجهاد ضد الاستعمار

البريطاني قبل أن يظهر غاندي أو نهرو على المنصة الوطنية ودعا إلى الوحدة القومية والانسجام القومي.

حميته الوطنية:

بقى رئيسا للمؤتمر القومي لست سنوات، وخلال رئاسته جرت حركة " غادروا الهند" التي أدت إلى اعتقاله في قلعة أحمد نغار، مرضت زوجته وهو في معتقله مرضا شديدا فأشار عليه بعض الإنجليز والأصدقاء أن يقدم طلب استئذان لرؤية وجه قرينته الحبيبة، التي كانت تتقلب بين الموت والحياة، لكن الغيرة الدينية والحمية الوطنية لم يؤذناه – فداه أبي وأمي – أن ينكس رأسه أمام الإنجليز. حتى ماتت زوجته وهو معتقل.

مات هذا المجاهد المغوار سنة ١٩٥٨م.

بكت على موته السماء والأرض دمعا ودما، ولبست الهند ثوب الحداد، وتبادل أفرادها التعازي والمواسات.

الدين واحد والشرائع مختلفة:

الدين رحمة للإنسانية:

إن الاستعراض الشامل السريع للديانات الهندية خاصة والعالمية عامة، يمكننا من الوصول إلى هذه الحقيقة بأن الديانة، في حد ذاتها، رحمة للإنسانية، وإنها منحت الإنسانية في جانب كل

ما تحتاج إليها من الأخلاق العالية، والأقدار السامية، ونماذج الحياة المثالية، وعلمت الإنسانية درسها، الذي تناسته وأهملته من زمن طويل، وفي جانب آخر، إن الاختلاف في نفس الديانة تسبب لكثير من الحروب العالمية الدامية، التي خلفت آلاف اليتامى والأيامى، والثكالى، تسبب في سفك الدماء، وتحريق البيوت، وتشريد آلاف من الناس، وأعطى لرجالها فرصة أن يعاملوا أخوانهم معاملة الحيوانات، ويعملوا بشريعة الغاب، أن ما حدث في الماضي وما يحدث حالياً في فلسطين مثال حي لذلك.

لو تأملنا هناك قليلا، لوجدنا أن الديانة، في حد ذاتها، لم تكن قط سببا للخلاف، بل اختلاف الديانات هو الذي منح الفرصة السانحة للخلافات والنقاشات الحادة الساخنة، التي أدت إلى الظلم والتعسف.

الدين واحد:

ومن هذا المنطلق نرى أن آزاد كان يؤمن إيمانا عميقا في الوحدة الدينية، إنه كان يؤمن بأن الدين واحد، لم يتغير ولم يتبدل قط، وفيما يلي ملخص آرائه وأفكاره في الفلسفة الدينية.

يرى آزاد أن هذه الفكرة (أي فكرة وحدة الدين) ليست وليدة أفكاره، بل أنها موجودة في القرآن، إلا أنه مع الأسف الشديد غابت حقيقتها عن أنظار المسلمين، لزمن طويل، ولم يصلوا إلى

كنهها وحقيقتها، " لو تفكر وتدبر أحد في القرآن موضوعيا، لوجد شواهد عديدة لهذه الفكرة".[١٠]

عاش الإنسان في بداية عهده حياته البسيطة، هادئا، قانعا، مطمئنا، دون أن تفرقهم الخلافات والنزاعات، يحب بعضهم بعضا، عاشوا أمة واحدة، ودعوا إلى رسالة واحدة، وكرسوا جهودهم لتحقيقها، لكن على مر العصور، حصل الخلاف بينهم، صاروا يتجادلون ويتخاصمون فيما بينهم، ثم بعث الله النبيين والرسل لهدايتهم، وكانت رسالتهم للإنسانية جمعاء.

اتحدت هذه الرسالات في مضامينها، لم تتغير في أي زمن من الأزمان، ودعا كل نبي إلى دين واحد، وعقيدة واحدة، وهو "الإيمان بالله والعمل الصالح" وكل ما عدا ذلك لا يمت إلى الحقيقة بصلة ما"[١١].

يقول آزاد مستلهما من آية قرآنية : " إن الله خلقكم أمة واحدة، لكنكم اختلفتم وتشعبتم فيما بعد واختلفت أوطانكم، فتخاصمتم لاختلاف أوطانكم، وتعددت قومياتكم، فتعاديتم فيما بينكم لأن قومياتكم كانت متعددة، اختلفت ألسنتكم، فاتخذتموه أيضا مبررا للخلاف والنزاع، لكن يا أخواني ! ما هو الشيء الذي يمكن أن يجعلكم أمة واحد، ويأتي بكم إلى منصة واحدة، ويجعل منكم شعبا واحداً، وقوما واحدا، يا ليتني لو نكستم رؤوسكم أمام إله

واحد، ورب واحد، لا محت وذابت جميع خلافاتكم ذوبان الملح في الماء، ولتحاببتم ولجعلتم من العالم بأجمعه وطنا لكم، فأفراد هذا العالم ينتمون إلى أسرة واحدة، وأنتم عباد الله الواحد القهار.[١٢]

اختلاف الشرائع:

رأى آزاد أن الديانات لا تختلف في الأصول، وإن وجد خلاف فهو في الفروع، وإن الأصل واحد، يوجد في الجميع، ويرى أن اختلاف الأديان له قسمان، الأول هو ما حصل بسبب اختلاف وانحراف أئمة الأديان، الذين فعلوا فعلهم في الكتب السماوية، والأديان الإلهية ، والثاني ما يوجد في أحكام وشرائع تلك الأديان، فمثلا تختلف أشكال العبادة في الديانات بعضها عن بعض، وهذا ليس اختلاف الأصل، بل اختلاف الفرع.

روح الدين:

الدين يتركب من جزئين،الأول ما هو يتعلق بروحه، والثاني ما يزخرف ظاهره، الأول هو الأصل، والثاني هو الفرع، والأصل في جميع الأديان واحد، وهو " الإيمان بالله والعمل الصالح"، أما أشكال العبادة، وطريقة الوصول إلى هذا الأصل، يختلف باختلاف الزمان والعصور ، فالشريعة لا بد لها أن تنسجم مع متطلبات الزمن الذي نزلت فيه. وإلا فقدت روحها وحيويتها،

ولأن الظروف تختلف فالشريعة أيضا تتغير وتختلف لتتناغم مع تلك الأوضاع، ولهذا وجدت هذه الشرائع.

حينما نزلت الآية " ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب.... الخ" كان أصحاب الديانات المختلفة يرون أنفسهم على الحق، ومن سواهم على الباطل، اعتبارا للطقوس الظاهرة للدين أصلا، وسببا للنجاة، أما الروح المعنوية الكامنة، فكانوا في غلاف كثيف عنها، لم يكن أحد يتوجه إليها، وقد أغمض عنها الجميع، وآمن كل حزب بأن كل ما لديه هو حق، وما عند الغير هو الباطل، إلا أن القرآن صرح بأن هذه الطقوس ليست بأصل الدين، واختلاف هذه الرسوم لا يعني الحق والباطل، أن هي إلا ظاهر الدين الذي يزخرفه، ويختلف عنه بعضه، أما الأصل فهو واحد، وهو " عبادة الله والأعمال الصالحة" وليس هذا احتكار لأي قوم أو دين، بل كل من يريد الهداية بإمكانه أن يجدها، وكل من يريد النجاة يمكن أن ينجو، وما عليه إلا أتباع تعاليم دينه الحقيقة.

" لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا" قال جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، لم يقل دينا واحدا، لأن الدين واحد لا ريب، لا يمكن أن يتعدد أو يتنوع، خلاف الشرع الذي يختلف باختلاف الزمان.

" ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة" هذه حقيقة مشهودة بأن طبائع البشر تختلف، واختلاف الفكر والعمل هو ميزة الطبيعة

البشرية، يوجد في الأديان كم يوجد في الإنسان، فلا تقل هذا خلاف الحق والباطل.

النجاة تتعلق بالعمل والعقيدة:

يقول آزاد إن القرآن أكد على ثلاثة أمور هامة:

(١)إن النجاة تتعلق بالعمل والعقيدة، لا بالانتماء إلى جماعة خاصة أو فرقة خاصة.

(٢) الدين واحد لجميع الإنسانية، وكل ما يوجد من تحزب الناس وتشيعهم، ليس إلا الضلال.

(٣) الوحدانية هي أصل الدين، أي عبادة الله وحده دون وسيط، والإيمان بجميع الأنبياء والرسل[13].

قال " إن أصل الدين الإلهي هو الأخوة والوحدة الإنسانية".[14]

كل إلى ذاك الجمال يشير:

قدم آزاد من خلال هذه الفكرة شبحا تاريخا لما تعرضت له الإنسانية في سبيل العقيدة، تاهت في متاهات الظلم والجهل والشرك، فقدت الهدف الذي خلقت له، فضاعت لضياع الهدف وتسكعت، عبدت كل ما تعرض لها في سبيلها، نكست رأسها أمام

كل شجر وحجر، كل ما يروعها ويخوفها أو يريحها ويفيدها، استحق الألوهية، لكنها لم تهتد إلى ذلك الإله الذي خلقها، وأرسل الأنبياء لهدايتها، وبعد نسيان الخالق ماذا بقي؟ لم يبق إلا الضلال، والتيه في غياهب الجهالة.

حاول آزاد محاولة ناجحة في تقديم سبب اختلاف الديانات، ليسهل حله، بذل كل ما في وسعه لإيجاد التوافق بين هذه الديانات. وحينما نرى هذا الخلاف من هذا المنظار نراهم كلهم على الحق، كلهم يشيرون إلى شيء واحد، لكن يدعي كل حزب أنه الحق فحسب، وغيره على الباطل.

أصل الديانات الهندية:

انطلاقا من إيمانه العميق بوحدة الدين، ووحدة الرسالة. يتقدم آزاد إلى الإمام بخطوات، ويدعي، وباستحقاق يدعي، بأن جميع الديانات الهندية تنتمي إلى أصل واحد، وإن كلها عبدت، يوما ما ، إلها واحدا نحن نعبده.

إن الهند ولدت وربت في حضنها كثيرا من الديانات، إنها تمتاز بهذه الميزة، وهذه مفخرة لها، كما يسكنُ فيها أصحاب أكثرية ديانات العالم، لكن الأصل هو أن يعيشوا بأمن وسلام.

وخلاصة الديانات كلها هي " الإيمان بالله والعمل الصالح"، ومن خلال هذه الفكرة حاول آزاد أن يوجد الاتفاق بين

الديانات الهندية المختلفة. إذا ثبت بأننا جميعا نسعى إلى هدف واحد، أصلنا الديني واحد، فلماذا نتفرق ونتشتت، لماذا نتباغض ونتحاسد ونتناحر، هذه الوحدة الدينية تقتضي منا أن نعيش كالأخوة، متجانسين، متراحمين، يربطنا الحب والإخلاص.

آثار الوحدانية:

وهو يرى رغم كل ما تحتوي عليه الديانة الهندوسية من أوساخ الشرك والضلال، ورغم هذه الكثرة الكاثرة للإلهات، لو أمعنا النظر فيما بقيت من آثار هذه الديانة، لوجدنا الوحدانية تتألق كالنجم في أفق الهند البعيد.

" إن الفكرة القديمة للذهن الإنساني التي تتألق حتى الآن في ظلام الفدم، هي فكرة الوحدانية. فكرة اله واحد جبار، خالق الكون وما في الكون، لكن يبدو وكان الإنسانية تقهقهرت فيما بعد، حتى وصلت إلى اتخاذ الشركاء، وانغمست في الشرك إلى الآذان، وجاءت بشركاء متعددة، للإله الذي لا يقبل الشرك بأي حال، وطأطأت رأسها عل كل العتبات.[15]

هذه الوحدة هي الأصل، كلنا نرجع إليها، نحن أفراد أسرة دينية واحدة. لكن الزمن أوجد الخلاف بيننا، وزادته الأيام شدة، حتى تفرقنا فرقا متعددة، وهذا الاختلاف لم يوجد إلا بسبب

الاختلاف بين العلماء، وتحريف التعاليم الدينية، وتضليل الأذهان الإنسانية.

آزاد يقول " إن كل ما نتج عنه العلم الحديث يتوافق تماماً مع ما جاء في الكتب المقدسة. إن التقاليد والشعائر الدينية التي كانت في مصر، ويونان، والهند، والصين، وإيران تشير إلى عهد كانت فيه الإنسانية بعيدة كل البعد عن الشرك والضلال. كانت تعيش حياة فطرية.[16]

موهن جودارو:

موهن جدارو: هي مدينة قديمة أثرية، تم العثور عليها بعد عمليات الحفر المتواصلة، تدل آثارها على حضارة متطورة، والنمو والإزدهار النموذجي، التي وصلت إليه هذه الحضارة، والذي أدهش علماء الآثار، واستقطب انتباههم. يرجع تاريخها إلى زمن غارق في القدم.

يقول آزاد عنها: " إن آثار موهن جودارو وتذهب بنا إلى عهد قديم جداً، قبل وصول قوم " آريا" إلى الهند، إن التحقيق عن هذه القرية لم يتم بعد، لكنه قد اتضحت هذه الحقيقة تمام الاتضاح بأن سكان هذه المدينة عبدوا إلها واحدا، ولم يشركوا معه أحدا، كانوا يدعون إلههم بـ" أون" (Oun) الذي يشبه لفظ " إندوان" (Undwan) في اللغة السنسكريتية. كان هذا الإله يسيطر على كل

شـيء، وبتصـف بصـفة " ويـدوكن" (Vedukun) يعنـي قـوة أو ذات إله " لا تأخذه سنة و لا نوم".[17]

الديانـة الـهندوسية:

فلسـفة الديانــة الهندوسـية : " إن مـبادئ الديانــة الـهندوسـية تتكون من متناقضـات، إنهـا تدعـو إلـى الوحدانية فـي جانـب، وفـي جانـب آخر، مالت عمليا إلى الشرك إلى حد، قلما وصل إليه قوم أو ديانـة فـي العـالم، إن فلسـفة الوحدانية فيها مرت بمراحل دقيقة من الفكر والتدبر، حتى وصلت إلى الذروة، حيث لا نجد لها نظيرا في الـديانات القديمة، أما الجانب التطبيقي، فمال إلى الشرك والضـلال، وانغمس فيهما إلـى حد، استحق فيه الشجر والحجر والأنـهار كلـها الـعبادة".[18]

التصور الإلـهي في أبانيشد:

التصـور الإلـهي فـي أبانيشـد فـي روايـات " ريـغ ويد" نحن نـرى فـي جانـب أن فكـرة عـبارة مظاهـر الفطـرة تنشـر و تتجسم تدريجيا وفي جانب آخر توجد الوحدانية أيضاً.

" إن عدد الإلـهة عند الـهندوس تصل إلـى ٣٣٣، لكن العدد يأخذ فـي الـتقلص شـيئا فشـيئا، ويتمركـز فـي ثـلاث فقـط، الأرض والفضـاء والسمـاء ثم هذا الـثلاث أيضـا يـتقلص في واحد، وهو إله

الإلهة، وتمخض هذا التقلص والتمركز عن وجود إله أعلى وأرفع من كل شيء، وهذا الوجود يظهر أحيانا في ذات " ورون" وأحيانا أخرى في ذات " إندر" أو " أغني " وفي النهاية توجد فكرة إله واحد هو خالق كل شيء، الذي يدعى بـ " خالق الكل" ، أو " رب العالمين"، الذي هو أصل وخالق جميع الكون".[19]

ديانة " بدها"

ديانة " بدها" ديانة ذائعة الصيت في أنحاء العام، ونجد أتباعها في الصين ويابان خاصة، مع أن الهند هي منبعها ومولدها، تشبه هذه الديانة بالمسيحية كثيرا، كما أن كلتاهما تدعوان إلى الحب والتسامح، وإلى العيش مع أمن وسلام.

" في الحقيفة أن ديانة بدها تخلو من فكرة " الإله" إلا أن أصحاب هذه الديانة أعطوا هذه المكانة " بدها" بنفسه، وأخذوا بعبدونه ويقدسونه".[20]

يقول آزاد عن ديانة بدها يرى بعض محققي هذه الديانة بأن الشرك لم يكن يوجد فيها في زمن " أشوكا" ملك الهند الكبير الشهير، لأن الآثار التي تعود إلى هذا العهد تدل على أن شخصية " بدها" لم تكن ذاك الوقت متجسمة كما هي الآن، بل كان بمكانه " زهرة اللوطس وكرسي خالي" ثم ظهرت قدمان على هذا الكرسى، حتى ظهرت شخصية " بدها" فيها بأشكال متعددة، لو

وثقنا بهذه الرواية، لأيقنا بأن عبادة أصنام " بدها" لم تكن في زمن " أشوكا"، بل وجدت فيما بعد، ويرجع زمن أشوكا إلى سنة ٢٥٠ ق.م.[21]

وقد ثبت بأن الديانات الهندية أيضا قد عبدت إلها واحدا، بعيدا عن الشرك والضلال، تتخذ من الوحدانية أصلا لها، وكانت فروع لديانة واحدة، فكل ديانة حقة، ورسالة جميعها واحدة، مع أنها صارت عرضة للتحريف والتزييف، وتواجد اختلاف الفروع، لذلك علينا أن نتسامح مع جميع الأديان.

دعاوى أصحاب الديانات:

إن جميع الديانات لا تدعي بأنها على الحق فحسب، بل أيضا تدعي بأن غيرها على الباطل، في هذه الصورة كيف يمكن أن نحكم، من هو على الحق؟ ومن هو على الباطل؟

يقول آزاد " من المستحيل أن نعتبر الدعاوى التي يدعيها أصحاب الديانات المتفرقة حقا، لأن صاحب كل ديانة لا يدعي فقط بأنه على الحق بل أيضا يقول إن الديانات الأخرى على الضلال، في هذه الحال، لا بد لنا أن نقول إن كل ديانة تجمع بين الحق والباطل، في آن واحد، وهذا مستحيل، فكيف يمكننا حل القضية.

حل القضية:

وقدم القرآن حلا مناسبا، وهو أن جميع الديانات في الأصل حق، لأن الأصل واحد، لكن أصحاب هذه الديانات انحرفوا من سواء الطريق، وضيعوا حقيقة الدين، وتخربوا تشيعوا، ولو امتنعوا عن هذا الضلال، ورجعوا إلى التعليم الحقيقي لدياناتهم، لانتهت هذه الخلافات وقضى عليها".[22]

لا يبقى لنا هنا أي سبيل سوى الاعتراف بجميع الديانات، والتسامح مع أهلها، وعدم الوقوع في الاختلاف الديني، إن التسامح شيء ضروري للإنسان، وإن التفرقة لا يجدي نفعا بأي حال، أن التفرقة تثبط العزائم وتدعو إلى الانحطاط، إنها كالسم الزعاف، لا يحي المرأ بعد أكله، والإنسان بنفسه مسؤول عن نفسه، بأنه أي سبيل يختار، أ يختار سبيل النمو والازدهار، أو سبيل التدهور والانحطاط، إن الديانة تدعو إلى الحب والمودة، ومتبعها يذهب إلى النقيض، فيدعو إلى البغض والعداوة.

يوضح لنا آزاد ما هو التسامح " إن التسامح هو أن تعترف بحق الآخرين، في اعتقادهم وعملهم، لو ترى أن صاحبك يذهب إلى الضلال، ففي ذلك الحين أيضا عليك أن لا تنكر عليه حقه في الذهاب إلى ما يذهب إليه، لكن التسامح لو وصل إلى حد بأنه صار يتدخل في اعتقادك، يؤثر في أمورك، فهذا ليس بالتسامح، إن هي إلا عدم استقامة الفكر".[23]

كيف نظر آزاد إلى الهند كمهد للديانات:

في ضوء ما قدمنا في الصفحات الماضية، ثبت بأن الدين واحد، كلهم أتباع ديانة واحدة، يعبدون إلها واحدا، يسعون إلى تحقيق هدف واحد، فلماذا هذا الخلاف الديني، وهذا البغض والحسد والضغينة على أساس الديانة، لم يعد للدين حق أن يوقع الخلاف أو يثير النزاع، وليس لأحد حق أن يتخاصم بسبب الدين، عليهم أن يتحابوا ولا يتجادلوا.

عصر آزاد:

إن عصر آزاد كان عصر الكفاح والنضال والجهاد، عصر الحرب مع الإنجليز المسيطر على الهند، كان أهالي الهند يكافحون لحقوقهم وأرضهم، بينما اتخذ الإنجليز خطة " فرق تسد"، وشرعوا في تقسيم الهند على أساس الديانة. وحاولوا تقسيم بنغال، إلى بنغال للمسلمين، وبنغال للهندوس، وهذا كله لم يكن إلا لايقاع الخلاف بين أهالي الهند.

وكان نجاح الهند في هذا الوقت يمكن في الاتحاد، والوفاق، وجمع الشمل. فقام رجال الهند مثل كرم تشاند غاندي، وجواهر لال نهرو، وأبو الكلام آزاد وعارضوا هذه الخطة معارضة قوية، أفشلتها تمام الفشل، إذ أنه لم يكن للاستعمار هم إلا تمديد مدة السيطرة والحكم، ومحاولة البقاء فيها لمدة أطول.

في هذا العصر المملوء بالخطط الاستعمارية المدمرة، قام آزاد بمهمة كبيرة إزاء وطنه ودينه، إنه أوجد الاتحاد بين أهالي الهند، أعلن الحرب ضد عناصر التفريق والتشتيت، وعلم الناس كيف يعيش الأقوام المتفرقة في انسجام وائتلام.

عناصر التفرقة:

وقد وجد في الهند في ذلك الوقت، كما يوجد الآن أيضا، عناصر لم يكن لها هم أو عمل إلا تفريق وتشتيت شمل الوحدة، وإشعال نيران الخلاف والنزاع، إفساد جو الاتحاد والتضامن، فكافح آزاد هذه العناصر، واثبت بأن الهند هي الأولى والأعلى من الجميع، والتضامن هو حاجة أساسية، لثباتها، ولبقائها، ولنموها وازدهارها.

الاتحاد حجر الأساس:

قال آزاد " هذا (أي الاتحاد) حجر الأساس لبناء الوطن، وإن لم يوجد هذا الأساس، فليست فكرة استقلال الهند فحسب، التي ستذهب هباء منثورا، بل كل ما هو ضروري لنمو وازدهار أمة أو بلد، ولا يستحيل علينا نيل الحرية فحسب، بل سيصعب لنا بغيرها تطبيق الأصول الإنسانية نفسها أيضا".[24]

ألح آزاد على الهندوس أيضا، كما ألح على غيرهم بأن يتعايشوا كأفراد أسرة واحدة، ولم يتردد هذا المجاهد قط في إظهار

أي فكرة، ما دامت تعمل على توحيد أهالي الهند، كثيرا ما انتقد الهندوس أيضا، والأذهان المفرقة المخرجة، التي كانت تعمل من وراء الحجاب، في الحقيقة إنها كانت مأساة الهند الكبرى بأن الهند ربت في حضنها هذه العناصر في وقت كانت في أشد حاجة إلى من يوحد لا يفرق، يوفق لا يشتت، في زمن كان أبناؤها يبذلون كل ما لديهم لنيل الحرية والاستقلال، في جانب،، فكانت هذه العناصر تبذل كل ما في وسعها للنيل من هذا الاتحاد في جانب آخر.

مخالفة الجمعية الهندوسية:

يقول آزاد " كما إني خالفت سنة ١٩١٢م الطرق المُعبدة التي كان يسلكها أخوتي في الدين، ولم يمنعني أي خوف من الصدع بالحق، هكذا اليوم إني اعتبر هذا فرضا على أن أخالف وأرفع صوتي ضد كل من يدعو إلى " الجمعية الهندوسية" [25]

كانت ميزة آزاد المثالية هي أنه لم يخف أحدا إلا الله، أخرج كل ما كان يدور في ذهنه، مرة حصل حادث في كانفور، وأراد بعض العناصر استغلاله، ونشر الاحن والفساد على أساس هذا الحادث الطارئ، فنرى آزاد يخالف هذا الاستغلال المقيت بكل قوة وحكمة يقول : " لا يمكن أي علاج في إطالة حادث عفوي، وتوجيه دعوة النضال والقتال، ثم تهيأ كل فريق بما لديه من السلاح، والخروج إلى حرب لا تنتهي". [26]

بين آزاد مؤامرات ودسائس الإنجليز، والخطط الاستعمارية، وعرف بأن بقاء الهند تحت كابوس الاحتلال إلى هذا الوقت يرجع سببه إلى التفرق والتشتت السائد في الهند، وإن الاستعمار نجح في خطته، وإطالة مدة الاستعمار والظلم، والنيل من كرامة الفرد والمجتمع، مع أن أهالي الهند لا يولون إليه بالا، لماذا؟ السبب هو أنهم قد شغلتهم خلافاتهم الداخلية، والمجادلات والنقاشات الدينية الفارغة، الفاسدة الخالية من المعنى والروح، ولم يدرك المسلمون حتى الآن بأن اتحادهم هو حجر الأساس في البناء الوطني الجديد.

وأحس آزاد أن مساعيه ومساعي غيره من مقاتلي الحرية تذهب سدى، مع هذا الاختلاف الذي يتآكل الهند من الداخل، وينخره كما ينخر السوس الخشب. فجلجل آزاد بحماسة : " نحن نحتاج إلى قومية واحدة، ونعلم لو استمر هذا الخلاف الديني بين المسلمين والهندوس، لصعب هذا التسامح، الذي هو ضروري لبقاء الهند نفسها".[27]

الكافر والملتش:

الكافر والملتش، هذان اللفظان لعبا دورا لا بأس به في تفريق المجتمع الهندي. يدعو المسلم غيره الكافر بحقارة، ويدعو

الهندوسي غيره " ملتش" يعني الوسخ المنبوذ. هكذا تدور المعركة بين الملتش والكافر وتسبب في كثير من الحوادث الطائفية.

رأى المسلمون – وقادهم في ذلك السيد محمد على جناح وسر سيد أحمد خان – بأن الهندوس لا بد من الابتعاد عنهم. ولا يجوز التصالح معهم، مع أن الوقت كان يتطلب منهم أن يتصالحوا. ففكر آزاد وتدبر، واستلهم من التعاليم الإسلامية، وقال " إن القرآن قسم الكافرين إلى قسمين، الأول من لا يحارب المسلمين، ولا يتحين الفرص للنيل منهم، فينبغي للمسلمين أن يعيشوا معهم في أمن وتسامح، ويقيموا معهم علاقات جيدة، والثاني من يحارب المسلمين، فلا حاجة للمسلمين إلى إقامة العلاقات معهم".[28]

كان سر سيد أحمد خان – مؤسس مدرسة على جراه – يؤيد الاستعمار البريطاني، ويدعو المسلمين إلى الابتعاد من الهندوس والاقتراب من الإنجليز، كان سر سيد رجلا مثقفا، وكان يرى بأن المسلمين متخلفون جدا، مع أنه تأثر بالغرب والحضارة الغربية تأثرا عميقا، ورأى أن ازدهار المسلمين، لا يمكن إلا بأتباع الغرب، ويرى بأن الحرية مع هذا التخلف لا يمكن، أولا يجب على المسلمين أن يتقدموا ويزدهروا في الحياة أولا، ثم يكافحوا للحرية، كان سر سيد يتعلق بمدرسة على جراه، مدرسة كانت لها أهمية في

قلوب المسلمين، ورأى يتبع، وأمر يطاع، وكانت مدرسة علي جراه أيضا تنصح المسلمين الابتعاد عن الهندوس.

في هذا الوقت أيضا خالف آزاد هذه الفكرة السيئة، ودعا المسلمين إلى الاقتراب من الهندوس، بما جعله عرضة للانتقادات الحادة، قال آزاد ببساطة وطمأنينة " إن خطة علي جراه تعتبر خطة مقبولة، وإنها تدعو إلى الابتعاد من الهندوس، لكنني أقول: لو أن المسلمين يريدون القيام بالواجبات الدينية والقومية، فعليهم أن يتحدوا أولا، ثم ينفضوا عن كاهلهم غبار الذل والهوان، إن الاتحاد مع الهندوس – خاصة في هذا الوقت الحرج – عمل ديني للمسلمين[29].

قال " للهند ولبقاء الهند، لا بد من الاتحاد بين المسلمين والهندوس."[30]

خوف أكثرية الهندوس:

هناك سؤال يطرح نفسه لماذا أراد المسلمون الابتعاد من الهندوس؟ فقد كان للمسلمين دولة وصولة في الهند قبل الاحتلال الإنجليزي، حكموا فيها قرابة ثمانية قرون، كانوا أقلية في ذلك الوقت أيضا، لكن الحكم والسيطرة لم يدعا لهم فرصة الإحساس بها، حتى انقرض حكم المسلمين، وجاء الإنجليز، وأوشكت الهند على الفوز بالحرية، ثم أخذ يدب هذا الإحساس في المسلمين

تدريجيا، وجعل يظهر في الابتعاد من الهندوس مرة، وفي مطالبة تقسيم الهند مرة أخرى.

طالب آزاد المسلمين بإخراج هذه الفكرة من قلوبهم وأذهانهم وقال " أخرجوا من قلوبكم فكرة الأقلية والأكثرية، هذه وسوسة الشيطان ألقاها في قلوبكم، ليست القوة بالعدد أو بالأكثرية فحسب، الأصل هي القوة المعنوية، والروحية، التي تتولد بالأخلاق العالية والمعاملة الحسنة، وفي اصطلاحنا نقول الأصل هو التقوى والعمل الصالح اللذان يولدان هذه القوة.[31]

الفطرة البشرية:

الاتحاد هو الفطرة البشرية، والاختلاف هو مخالفة هذه الفطرة، إن الإنسان لا يدعي إنسانا إلا لأنه يوجد فيه الإنس والمحبة، وإلا ما الفرق بينه وبين حيوانات الغابة، يأكل بعضها بعضا، الإنسان يتصف بصفة الإنس، وهذا الإنس يقتضي الاتحاد والتضامن، وهذه هي الفطرة البشرية "لله لا تدعوا إلى إنكار الفطرة البشرية".[32]

الهند مهد للديانات، توجد في كل ناحية من نواحيها ديانات متعددة، هي ميزة ومفخرة للهند، بأنه وجد ويوجد على أرضها هذا العدد الكبير من الديانات، لكن مع هذا يتحتم على أهاليها أن يعيشوا سالمين متسالمين، هانئين قانعين، بتسامح وحب للجميع.

تعالوا! نحاول الوصول إلى روح هذه الكلمات النيرة.

" لو نزل ملك منٍ علياء السماء، وأعلن من فوق " منارة قطب" إن الهند ستفوز بحريتها في أربع وعشرين ساعة، لكنها ستفقد مقابلها التضامن القومي، واتحاد شعوبها، فإني لن أقبل هذا، لأنه لو تأخرت الحرية، فهذه خسارة الهند، لكن لوفقدنا اتحادنا القومي، فهذه خسارة الإنسانية جمعاء".33



المراجع:

١ - الهند تفوز بحريتها، ص:٢

٢ India Wins Freedom, P 2-

٣ - أبو الكلام آزاد: شخصيت اور كارنامي، ص:٦٦٦

٤ India Wins Freedom, P 2-

٥ Ibid, P.3 -

٦ Ibid, P 6 -

٧ Ibid, P.7 -

٨ - أبو الكلام آزاد، المصلح الديني فى الهند، ص:٦٧

٩ - المرجع السابق،ص:٦٧

١٠ - ترجمان القرآن، ج ١، ص: ٣٥١

١١ - المرحع السابق، ص ٣٥٨

[١٢] - المرجع السابق، ص: ٣٦١
[١٣] المرجع السابق، ص: ٣٨٢
[١٤] - المرجع السابق، ص: ٤٠٠
[١٥] - المرجع السابق، ص:٢٣٢
[١٦] - المرجع السابق، ص:٢٤٩
[١٧] - المرجع السابق، ص: ٢٤٥
[١٨] - المرجع السابق، ص: ٢٦٣
[١٩] - المرجع السابق، ص: ٢٦٤
[٢٠] - المرجع السابق، ص: ٢٦٢
[٢١] - المرجع السابق، ص: ٢٧٨
[٢٢] - المرجع السابق، ص: ٤٣٩
[٢٣] - المرجع السابق، ص: ٣٢٥
[٢٤] - خطبات آزاد/ ص: ٢٠٥
[٢٥] - المرجع السابق، ص: ٢٠٧
[٢٦] - المرجع السابق، ص: ٢٠٨
[٢٧] -المرجع السابق،ص: ٢٠٩
[٢٨] - ذكر آزاد، ص: ١٤٠
[٢٩] - المرجع السابق ،ص: ١٤٢
[٣٠] - المرجع السابق، ص: ١٣٤
[٣١] - تحريك آزادي، ص: ١٣
[٣٢] - خطبات، ص: ٢٠٩

[٣٣] - آزاد، في الجلسة الخاصة للمؤتمر القومي، سنة ١٩٣٣م.

المراجع والمصادر:

(١) أبو الكلام أزاد المصلح الديني في الهند، عبد المنعم النمر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،

(٢) أبو الكلام آزاد شخصيت اور كارنامي، رشيد الدين خان، ترقي اردو بيورو، نيودلهي

(٣) أما الهند ابو الكلام أزاد، سيده سيدين، أندين كونسل فاركلجرل ريليشن

(٤) ذكر آزاد، مليح أبادي، اجالا بريس، كلكته

(٥) ترجمان القرآن، الإمام أبو الكلام آزاد، ساهتية اكيدمي

(٦) خطبات آزاد، الإمام أبو الكلام آزاد، ساهتية اكيدمي

(٧) تحريك آزادي (حركة الاستقلال) الإمام أبو الكلام آزاد، ساهتية اكيدمي

(٨) مضـــامين آزاد، الإمـــام أبـــو الكـــلام آزاد، ساهتية اكيدمي

(٩) فلسـفة هـند ويـونان، ديـن محمـد عهـدي بوري، مجلس ترقي أدب بيورو

(١٠) انـتخاب زمـيندار، بروفيسـر عتـيق أحمـد صديقي، أتربرديش، أردو أكيدمي

(11) India wins Freedom, A.K. Azad

(12) Moulana Azad Selected Speeches and statements, P.N. Chopra, 1990 A.D.

(13) Moulana Abul Kalam Azad, Humayun Kabir, 59 N.D.



الهند كمهد للديانات في ضوء كتابات مولانا أبو الكلام آزاد

ـ محمد أويس الصديقي

مقدمة

مما لا شك فيه أن الهند منذ أقدم العصور كانت ولا تزال مهداً لديانات مختلفة وحضارات مختلفة وقد تولدت من اختلاف الديانات والحضارات ثقافات شتى، لكل منها تقاليدها وعاداتها وشعائرها، لكنها مع مرور الأزمنة وتتابع القرون مزجت مع بعضها البعض، حتى ظهرت في إطار هندي شامل إن جاز هذا التعبير ـ ويمكن أن يكون خير مثال لفكرة " التباين في الوحدة" التي تعتبر أهم معلم من معالم الثقافة الهندية على الإطلاق.

ولقد حث كثير من الأدباء والمصلحين ـ وفي طليعتهم مولانا أبو الكلام آزاد ـ والشعراء على ضرورة توطيد دعائم الوحدة الهندية، من خلال كتاباتهم وأعمالهم

وشعرهم وإنتاجاتهم الأدبية، التي كانت نابعة من روح سمحة يحملونها في قلوبهم، ونزعة إنسانية حقة تحثهم على احترام حقوق الإنسان التي تنادي بها الدول المتقدمة في هذا العصر المتقدم المليء بالحزازت والأحقاد والتباغض والتحاسد والظلم والعدوان.

لكن الهند قد سبقت العالم كله في مجال احترام حقوق الإنسان بتبني فكرة " التباين في الوحدة" واتخاذها ركيزة أساسية لثقافتها العريقة - والكتب المقدسة للهنود القدامى كانت تعلق أهمية كبرى على الصداقة الدولية وروح الجوار - ولم تعد نظرية التعايش السلمي إضافة جديدة إلى الفكر الهندي، فقد كانت هي حجر الزاوية للفلسفة الهندية، التي كان من تعاليمها:

" ليكن الكل الذين يحبون التعايش في إخاء ومحبة أفكار واحدة."

لقد كان استقلال الهند تحقيقا لمفهوم " سوراج" في كتب لفيدا، وذلك لأن الهنود لم يتصوروا عالما منقسماً ممزقاً، وقد حاولت دائما أن تحل المشكلات الدولية وفقا لتقاليدها الثقافية والحضارية، هذا وقد كان دستور " جواهر لال نهرو " المسمى "بانش شيلا" مساهمة قيمة في قضية التعايش السلمي وقد أنجبت الهند عبر تاريخها العلمي الحافل بالجد والكفاح والمليء بالأعمال

المبدعة التي ساعدت الإنسان في اكتشاف عجائب الكون وتسخيرها لفائدته لكن ينعم بحياة أفضل ويسعى إلى مزيد من التقدم والازدهار، رجالا أفذاذ قاموا بدور طليع فى النهضة الهندية الشاملة، وبناء الهند الحديثة، وحل قيود التقليد الأعمى، ومحاربة التعصب الذميم. وهؤلاء قد تركوا لنا تراثاً علمياً ضخماً، وآثارا خالدة في العلم والأدب والثقافة، لا تزال نتائجها تتفاعل مع مكونات واقعنا المعاصر. ومن هؤلاء الرواد برز مولانا أبو الكلام آزاد بخصوبة فكره، وتنوع إسهاماته وعمق تأثيره في المجتمع الهندي الذي كان يرزح تحت نير الاستعمار الإنجليزي الغاشم في زمنه. وهو قد حاول إيجاد حلول مناسبة لأزمة مجتمع يعاني موانع وكوابح ضاغطة لكون الفكر مكبلا في قيود التعصب والتقليد الأعمى، كما حاول من خلال كتاباته تقوية الروابط الإنسانية، نبذ الفوارق الجنسية والدينية ونادى بصوت أعلى: " يا أيها المتنافرون اتحدوا وقفوا صفا واحدا وانبذوا الخلافات، فإن فوق الاختلافات الدينية رابطة أقوى وأمتن وهي رابطة الإنسانية".

إذن ـ لا بد لنا أن ندرس كتابات أسلافنا دراسة متأنية تحملنا على تفكير موضوعي جاد، وتبعدنا من الإنسياب وراء التحرش والتعصب الذميم، الذي يقودنا إلى هاوية من الذل والهوان، وذلك هو الخسران المبين-

لا تخفى على كل من له إلمام بالبحث صعوبة الاستفادة حول موضوع معين، من مؤلفات كاتب يكون عهده قريبا من عهد البحث والتحقيق. وتصبح هذه العملية أصعب عندما تصير شخصية المؤلف مختلفة فيها لبعض من آرائه وكتاباته. ففي مثل هذه الحالة، يندفع صاحب المقال إما وراء الارتباط العاطفي أو العداوة العاطفية، وتوصد عليه أبواب المطالعة الجادة غير العاطفية. فاستعراض كتابات آزاد والاستفادة منها في كتابة مقال حول موضوع معين يتطلب منا القراءات الجادة والتفكير الموضوعي من جانب، والتحفظ من جانب آخر.

ولسنا في هذا المقال بصدد بيان صحة عقيدة آزاد السياسية أو خطائه، لكننا حاولنا قدر المستطاع أن نستعرض كتاباته ونعرض أفكاره حول هذا الموضوع، بعيداً عن كل نوع من التعصب والارتباطات العاطفية.

أبو الكلام آزاد:

شخصية عملاقة من عمالقة الفكر الهندي:

كان أبو الكلام آزاد زعيما وطنيا وعالما كبيرا ملأ الأسماع والقلوب في داخل الهند وخارجها، بزعامته في مجالات العلم والأدب والكفاح الوطني وقد أعاد هذا العالم المسلم إلى أذهاننا

ذكريات أمجاد الأسلاف المصلحين المكافحين، الذين لم يخشوا لومة لائم في الجهر بالحق، وثاروا في وجه الاستعمار الأجنبي وحاربو الجهل والخرافات والبدع المتفشية في الأمة الهندية وحالوا التحول عنها، إلى حياة المعرفة والعزة والكرامة. ودعوا المسلمين إلى إتباع التعاليم القرآنية الحقة، تعاليم الحرية والأخوة الإنسانية والعدالة الاجتماعية والألفة الطائفية.

مولده ونشأته:

لقد ولد آزاد عام ١٨٨٨م في مدينة مباركة نعرفها بمكة المكرمة، وسماه والده محي الدين أحمد، وكان آزاد ينتمي إلى أسرة هندية مسلمة متمسكة بالدين الإسلامي، وقد سافر والده إلى الحجاز المقدس فارا بدينه وعرضه من البلاد الهندية التي سيطر عليها الاستعمار الإنجليزي الغاشم وأخذ يضايق المسلمين الهنود في مختلف الميادين بطرق شتى لا يسع هذا المقام لذكرها ثم عاد إلى الهند مع عائلته في عام ١٨٩٠م بعد إصابته بمرض لا يمكن علاجه في الحجاز، ثم استقر في " كلكتا" المدينة الهندية التاريخية. وهنا بدأ الطفل يتلقى دروسه الابتدائية حسب المناهج المتبعة لدى المدارس الديئية العربية القديمة.

ولقد نشأ آزاد في رعاية الأبوين الذين كانا يجيدان اللغة العربية، وكان لذلك أثر واضح في نشأته الدينية والعلمية، وفهمه

لقرآن الكريم، والعلوم الإسلامية على وجه صحيح، وكان، آزاد منذ أيام طفولة حريصاً على اقتناء الكتب ومطالبتها وأتاحت له هذه المطالعة الواسعة الفرصة لأن يطل على آفاق جديدة من الثقافات والعلوم والفنون، واختار لنفسه خطة خاصة في البحث العلمي والفهم الديني وتشكيل حياته، متحللاً من التقيد بالتقاليد والعادات الموروثة من أسرته وبيئته. ووضع أمام عينه أهدافا سامية تتمثل في الإصلاح، ونشر روح العمل الدائب وتعميم الأفكار الصحيحة في الهنود، واتخذ الصحافة والخطابة وسيلة فعالة لتحقيق الأهداف المنشودة وأصدر المجلات عديدة من أهمها: مجلة " الهلال" ومجلة " البلاغ" ومجلة " لسان الصدق".

وكان هدفه من وراء إصدار هذه المجلات مزدوجا، لما كان يدعو فيها إلى إحياء الروح الدينية الصحيحة في المسلمين، وتعريفهم بتعاليم الإسلام الهند، كما يدعو الشعب الهندي عامة والمسلمين خاصة إلى الثورة ضد الاستعمار الإنجليزي الغاشم، الذين كان يحتل البلاد ويمتص دماء الشعوب، ويشل حركة التقدم فيها. ويمكن الإدعاء بأن الهدف الأصلي وراء محاولاته الصحفية والفكرية والسياسية ومعتقداته الدينية إلى حد ما هو إنجاح حركة الاستقلال الوطنية يقول آزاد:

" إن أفكاري السياسية نابعة من الدين، والدين الإسلامي نظام كامل وشامل للحياة الإنسانية، يضع في طياته توجيهات رشيدة لحياة المسلمين الأخلاقية والعلمية والسياسية، ولو لم توجد فيه هذه التوجيهات لما يقال له بأنه دين عالمي أخير.1

أزاد ككاتب قومي:

لم تكن الوحدة الهندية مجرد شعار يهتف له آزاد أو طيف يناجيه كما كان شأن الكثيرين في تلك الفترة من انطلاق القومية الهندية. فآزاد رجل فكر وباحث اجتماعي متمكن من التاريخ وأحوال الأمم، وهو ينادي بالوحدة الهندية لأنها ضرورة حتمية تستلزمها حياة الهنود ويقتضيها مصيرهم المشترك. فلنستمع إليه يقول:

" أنا مسلم وإنني فخور بأنني مسلم، ورثت عن آبائي تراثا إسلاميا ضخما، إنني لست راض بأن أترك ولو قطعة صغيرة منه، لأن التعاليم الإسلامية، والعلوم الإسلامية والحضارة الإسلامية أصول ثروتي، والحفاظ عليها واجبي، لي كياني المتميز في الأوساط الدينية ولا أتحمل أن يتدخل

أحد في أمور ديني، ولكن مع هذا الشعور لدى شعور وطني آخر أحدثته ظروف حياتي، والروح الإسلامية لا تمنعني من أداء واجبات ذلك الاستشعار، بل تهديني إلى ما فيه نجاحي وصلاح أمري. أنا فخور بأنني هندي، وعنصر هام لتلك الوحدة القومية التي لا تقبل الانقسام و التفرقة في أي حال من الأحوال ولا يمكن تصور عظمة بنية الوحدة القومية بدونها".[2]

لي وطن آليت أن لا أبيعه ولا أر غيري له الدهر مالكا

ويقول في موضع آخر:

" لو أن ملكا ينزل من السماء ويقف على "قطب مينار" ويعلن يمكن الحصول على الاستقلال الوطني شريطة أن تتنازلوا عن الاتحاد بين الهندوس والمسلمين، فهذه الصفقة مردودة على وجهه، لأن التأخر في الحصول على الاستقلال سيكون وبالا على الهند، لكن التنازل عن الوحدة بين الهندوس والمسلمين سيكون وبالا على الانسانية جمعاء".[3]

لقد آمن بوحدة الأمة الهندية منذ عهد مبكر فزادته الأيام إيمانا بأن وحدة الأمة هي ملاذها الآمن، وطريقها إلى التقدم والازدهار، ووسيلتها الناجحة لعودتها إلى خضم التاريخ، فالأمة الهندية بموقعها الفريد، وطاقتها البشرية الهائلة، وثرواتها الغنية ورسالتها الإنسانية وحضارتها العريقة مؤهلة لتحتل مكانة سامية في الركب العالمي، وتكون عنصرا مؤثرا في صنع حضارة المستقبل، حضارة تقوم على الإخاء والتعاون بين الأمم والسعي لينعم البشر بالرخاء والخير، ترفرف عليهم رايات المحبة والسلام.

سلام على كفر يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعد هب جهنم

آزاد والسياسة:

كان من مظاهر تميز آزاد كمثقف هندي أنه كان حميم الارتباط بما يجري في بلده، لأنه لم يضع خطا وهميا مفتعلا بين الدين والسياسة فهذا الزيف المصطنع يتبدى عند عدد غفير من رجال الدين بابا خليفا للهروب والتنصل من الممسؤولية الاجتماعية، وما كان آزاد سياسيا محترفا، إنما كانت السياسة له كما هي لكل مواطن واع الوجبة اليومية والارتباط الحميم الذي يعلو إلى مرتبة الواجب وإلى مغزى الوطنية، فكيف إذا كان أديبا نابها، ومفكرا ساخطا مثل أبو الكلام آزاد. ولم يكن ارتباط آزاد بحزب المؤتمر الوطني ارتباطا مصلحيا كما تقتضي طبيعة

الأمور، بل أنه وجد فيه منابر يعلن من فوقها أفكاره التجديدية التي قد تتفق إلى هذا الحد أو ذاك مع الحزب ومفترضاته. ويمكن تقسيم حياة آزاد السياسية من حيث التسلسل الزمني إلى ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى:

المرحلة الأولى من حياته تبدأ من عام ١٩٠٦م إلى عام ١٩١٥م، أي من السنة الثامنة عشرة من عمره إلى السنة السابعة والعشرين من عمره. برز آزاد على الساحة الوطنية في هذا الزمن كمسلم فاص قلبه بحب الوطن وأهله، ولسان حاله يقول:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه بالخلد نفسي

وقد غلبت عليه في هذا الزمن رغبة عارمة لتوطيد دعائم الوحدة الإسلامية، لإنشاء قوة إسلامية تسعى لمواجهة مؤامرات الاستعمار، واستئصاله من جذور، ولا شك أنه قام بدور طليع في إنقاذ الأمة الإسلامية من الوقوع في أحبولة الأعداء، كما لعب دورا بارزا في تحول مجرى أحداث العالم في بداية القرن العشرين بإسهاماته العملية المتنوعة التي كانت نتاج فكره الثاقب، وذهنه الوقاد، وطبيعته الخلاقة، وإحساسه المرهف، وشعوره العلمي الناضح. وكانت أفكاره مستمدة من الكتاب الإلهي الذي كان براه منبعا للعرفان لا ينضب، وكتاب هداية الذي يهدي الإنسان في كل

مرحلة من مراحل حياته. وكان يحامل أن يعيش مع كلمات القرآن ويتحرك بها ويقتصر لذاتها، ويتناول ذوق قلبه وروحه سن همسها، ويقبل على القرآن بنفسه الجدباء وفؤاده القفر، ويهطل عليه بالعطش في وجدانه والجوع فى ضميره، وينزل في واحاته الوارفة، ويقيم خيام الشوق في ربوعه، ويقدم حلولا واقعية لمشاكل البشرية عامة، ولمشاكل المسلمين خاصة، من خلال الآيات البينات. ويريد أن يصبغ الناس بصبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة.

وكان ينادي:

أنا ابتغي يا أم أن أحيا على نــــــور مبين

بكتاب ربي سائرا أقفوا ســــبيل الصالحين

بسنة الهادي البشير أسيـــــر بين العالمين

وأهدى الذين تنكبوا درب الـهـداة الراشدين

يا أم مهما طال ليل الظلـــم لا لن استكين

ولسوف أمضى نحو مجدي لا أهاب الحاقدين

متسلحا سيفي وفكـــري لا أهاب الطامعين

أسعى ونفسي للعلا تسعى لمجد العارفين

ولنستمع إليه يقول:

"طالعت القرآن الكريم بدقة حوالي سبع وعشرين سنة كاملة، واجتزت الوديان في كل سورة وآياته حتى في كل كلمته. لقد بدأ الناس تقسيم العلم إلى قديم وجديد، فكل ما هو قديم قد ورثته عن آبائي وأسلافي وكل ما هو جديد استخرجته من النصوص القرآنية.[4]

المرحلة الثانية:

المرحلة الثانية من حياته السياسية تبدأ من عام ١٩٢٠م إلى ١٩٢٣. برز آزاد في هذا الزمن على الساحة الوطنية كزعيم لحركة الخلافة وكمفكر كبير ما اكتفى بجمع تراثه الأصيل، بل حاول استخدامه للمصالح الوطنية، وفقا لمتطلبات العصر.

وفي هذه الفترة دعا الناس إلى المقاومة السلبية والعصيان المدني، ووقف إلى جانب بزعام الوطنيين، وشد أزرهم بأرائه السديدة وأفكاره التجديدية المنشورة على صفحات الجرائد التي

تولى إدارته، وحث الناس على دعم الحركات الوطنية المطالبة بالحرية والاستقلال دعما ماديا ومعنويا.

المرحلة الثالثة:

المرحلة الثالثة من حياته تبدأ من عام ١٩٢٣ إلى عام ١٩٥٨م. برز آزاد في هذا الزمن على الساحة الوطنية كزعيم كبير للحركة الوطنية يدعو الناس إلى الحفاظ على الحضارة المشتركة وقيم الديمقراطية الصحيحة، ويفند مزاعم أهل الباطل من خلال كتاباته وخطبه. وكانت له أساليب خاصة في بث الأفكار الصحيحة. فهو لامراء داعية علم حقيقي متفان في نشر العلم والتهذيب والجمع بين القديم السليم والجديد المفيد، بحيث يصح لنا أن نقول إنه كان ملكا بعلمه وعقله وبعد همته، ملكا في تدينه وأخلاقه، ملكا بعزة نفسه وترفعه عن الصغائر.

وقد كتب آزاد عن الأديان السماوية، الوضعية، واستوعب البحث في كتابه ترجمان القرآن حول هذا الموضوع. فها نحن بصدد استعراض كتاباته عن الأديان المختلفة الموجودة في الهند، لكي نثبت بأن الهند كانت ولا تزال مهدا للديانات المختلفة.

ما هي وجهة نظر أبو الكلام آزاد في كون الهند مهدا للديانات المختلفة؟:

لقد أكدت الشواهد التاريخية الكثيرة أن الهند كانت مهدا للديانات المختلفة منذ أقدم العصور، وخير دليل على ما نقول هي الثقافة الهندية المشتركة التي تصرخ في وجه الأعداء أن الهند وحدة لا تتجزأ، مهما أجلبوا الأعداء بخيلهم ورجلهم لانفسامها.

ولقد صرح مولانا أبو الكلام آزاد أكثر من مرة بأن الهند كانت ولا تزال مهبطا ومنزلا للأعراق المختلفة الحضارات المختلفة والديانات المختلفة، فلنستمع إليه يقول:

> " شاءت الأقدار أن تكون أرض الهند السمحة مهبطا ومنزلا للأعراق المختلفة والحضارات المختلفة والديانات المختلفة. ولم يتنفس صبح التاريخ حتى بدأت القوافل تفد إليها من كل حدب وصوب واحدة تلو الأخرى. فأرض الهند الرحبة كانت تستقبل الجميع، وتمكنهم من الاستقرار في ربوعها. ومن بين هذه القوافل كانت قافلة الإسلام هي الأخيرة التي وصلت إليها مقتفية آيار القوافل الأخرى، وأناخت فيها راحلتها، واستقرت في مهادها وسهولها وديانها إلى أبد الآبدين، وكان هذا بمثابة اختلاط لتيارات الأمتين المختلفتين والحضارتين المختلفتين، وانصب تيارا

هاتين الأمتين منعزلين عن الآخر كتيار ماء نهري " يمنا" و "غنغا". ثم بحكم قانون الفطرة، التقيا في نقطة واحدة، ويعتبر اختلاطهما أعظم واقعة على الإطلاق شهدته الهند، وهنا تم وضع حجر الأساس للهند الحديثة بدلا من الهند القديمة".

وأضاف يقول:

" لقد مضى أحد عشر قرنا من الزمان بعد ان وقعت هذه الواقعة التاريخية. وللدين الإسلامي حق في هذه الأرض يساوي حق الدين الهندوسي فيها وذلك لأنه لم تبق ناحية من نواحى الحياة الهندية إلا و ملاءها تاريخنا المشترك بالأعمال البناءة في كل مجال من مجالات الحياة، وترك آثاراً خالدة في لغاتنا، وشعرنا، وأدبنا وشؤوننا الاجتماعية وذوقنا وأزيائنا وتقاليدنا وحياتنا العادية. وكنا نتحدث لغاتا مختلفة، فأصبحنا نتكلم لغة واحدة. كانت تقاليدنا تختلف عن بعضها البعض لكنها بعد الانصهار في بوتقة واحد زهرت في أثواب جديدة، وبقيت أزياؤنا القديمة محصورة في الصور القديمة، وهي تبدو متنكرة على أجسامنا لو لبسناها في هذا الزمان، كل هذا التراث

> المشترك ثروة عظيمة لقوميتنا المتحدة، ولا نريد أن نرجع إلى ذلك الزمان الذي لم تبدأ فيه هذه الحياة المشتركة. ولقد نشأت قومية متحدة من حياتنا المشتركة الممتدة إلى ألف سنة أو تزيد. وليس في مقدور الإنسان تشكيل مثل هذه القوالب، لأنها تحتاج إلى قرون عديدة في ظهورها ونشأتها[5].

هذا الاقتباس يدل دلالة واضحة على أن مولانا أبو الكلام لم يعتقد بكون الهند مهدا للديانات المختلفة فحسب، بل إنه دعا الهنود إلى الاعتراف بهذه الحقيقة، بحثه الناس على الحفاظ على التراث المشترك الذي تولد من احتكاك الشعوب المختلفة في أرض الهند الرحبة التي تستقبل الجميع، منطلقة في ذلك من الفلسفة الفيدية القائلة:

> " ليكن الكل الذين يحبون التعايش في إخاء ومحبة أفكار واحدة"[6].

يبدو من مطالعة هذا الاقتباس المذكور أعلاه أن مولانا أبو الكلام آزاد قد اتخذ الفلسفة الهندية نقطة انطلاق عند الكتابة في مثل هذا الموضوع، والفلسفة الهندية بالضرورة فلسفة روحانية لكونها مصباح لكل لعلوم، ووسيلة تنفيذ كل الأعمال، والمعضد

لكل الواجبات، وشغفها الشديد بالمناقشات الميتافيزيقية. ويقال أن تاريخ الفكر الهندي هو سعي الهنود الدائب نحو (الحقيقة والإدراك واللذة) ويتميز بثلاث معالم رئيسية، أولها الاستمرار التاريخي فقد ظل المفكرون الهنود يستكشفون الطبيعة ومعنى العالم لمدة ثلاث آلاف سنة متواصلة وثانيها الوحدانية، فقد توقع كل المفكرين الهنود الميل المثالي بالاستمساك بالمدأ القائل بأن الدنيا في حقيقتها وحدة واحدة وأن هذه الوحدة روحانية. أما ثالث تلك المعالم فهي أنها لم تعتصر أبدأ على نشاط العقل بمفرده، فالمعلم الثاني يشير إلى أن الهند أرض رحبة تستقبل كل من يفد إليها. يقول آزاد في موضع آخر:

" إن نجاة الهند تكمن في إيجاد الوحدة بين الهندوس والمسلمين فلا بد للمسلمين أن يؤدوا واجبهم الوطني لإيجاد الوحدة."

ولكن دعوته إلى إيجاد الوحدة بين الهندوس والمسلمين لا تعني أبدا انسلاخ المسلمين من معتقداتهم الدينية، وترك الهندوس طقوسهم وشعائرهم الدينية، بل كان هو غيورا على دينه لا يقبل من أحد أن يتدخل في أمر دينه، مع احترام الأديان الأخرى، يقول:

" أنا لا أدعو المسلمين والهندوس إلى ترك جهودهم وسعيهم لرقي الأفراد المنتمين إلى هذين

المذهبين بل هم أحرار في نشر أفكار مذاهبهم وأديانهم، لكن يجب عليهم أن يسروا معا مثل ما يجرى النهرين معا، ولكل منها حرية تامة في حشد الطاقات من حلفائهما، بحيث لا يتعرض أحد سبيل الآخر، بل يجب عليهم السير معا في ركب التقدم متكاتفين ومتعاونين فيما بينهم، ويختلط فيما بينهم كاختلاط ماء نهري " يمنا " و" غنغا"[7].

والجدير بالذكر هنا، أن بعض الناس، اتهموه لفكرة وحدة الأديان، التي دعا إليها آزاد وهم، يظنون أن مفهوم وحدة الأديان عنده كان العمل على الثوابت المشتركة لجميع الأديان، وذلك يكفي لنيل السعادة والنجاة، وهذه الثوابت المشتركة سماها القرآن "الإسلام" أما الأعمال والعبادات فهي ظواهر الدين، والنجاة لا تتوقف على مواظبتها.

والحقيقة أن أبا الكلام آزاد قصد بدعوته إلى وحدة الأديان، إيضاح الفرق بين الدين والشرع، وقد استوعب البحث في هذا الأمر في تفسيره لسورة الفاتحة. فالدين عنده عبارة عن تلك الحقائق للعقيدة والعمل التي عرضها الرسل في كل زمان أمام الناس والقرآن الكريم ذكرها مرة ثانية. أما الأعمال والعبادات فهي عبارة عن الشرع والمنهاج. والاختلاف في الفروع أمر لا يمكن

تجنبه. وقد استوفى مولانا أخلاق حسين قاسمي البحث فى هذه القضية فى مقال له نشر في العدد الخاص لمجلة الجمعية الأردوية حول حياة أبو الكلام آزاد ومآثره.

وقد أصر مولانا أبو الكلام على فرضية الإيمان والعمل للنجاة الأخروية، يقول:

" من يدعى بأنه يحب الله فعليه أن يتبع رسوله لأن حب الله وإنكار اتباع الرسول لا يجتمعان في قلب واحد".

والحقيقة أن مولانا أبا الكلام آزاد قد تأثر فى هذه القضية من آراء المحدث الجليل الشاه ولي الله الدهلوي لأنه قام بدور فعال في تشكيل الفكر الإسلامي، وإيقاظ الوعي السياسي في المسلمين ولذلك أوضح في كتابه حجة الله البالغة:

يقول:

" اعلم أن أصل الدين واحد والشرائع والمناهج مختلفة".

كان يريد بدعوته إلى وحدة الأديان، إيضاح الفرق بين الدين والشرع وما كان يريد بذلك إيجاد الوحدة في الأديان في كل شيء.

ويقول آزاد في موضع آخر مصرا على أن الهند مهد للديانات المختلفة:

" لا بد للمسلمين أن يتكاتفوا مع إخوانهم الهندوس والمسيحيين والسيخ والمجوس، لإنقاذ وطنهم الغالي من براثن الأعداء، وأنا مازلت أدعو قومي ومواطني الهند إلى مطالبة الاستقلال وحق تقرير مصيرهم المشترك. وقضيت عنفوان شبابي في السعي من أجل الحصول على هذا الهدف الغالي. وسأحاول لتحقيقه إلى أخر نفس من أنفاس حياتي"[8].

فآزاد عندما يدعو الهنود إلى التعاون فيما بينهم، يؤكد حقيقة كبرى، وهي أن الهند ليست وطنا لقوم دون قوم، لديانة خاصة دون ديانة أخرى، لنسل دون نسل آخر، بل كلهم مراطنو الهند، ينتمون إليها، وهي تنتمي إليهم جميعاً، لذلك يجب على كل مواطن الهند بذل ما في وسعه من جهد لنيل الحرية، وبالتالي لحياة أفضل، حياة فيه عزة وكرامة.

إذا الشعب يوما أراد الحياة   فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجـــــــلي   ولا بد للقـــيد أن ينكسر

لأن شمس الحرية لا يمكن أن يلاشي نورها بعد إشراقتها وسطوعها.

ولقد أكد نفس هذا المعنى في موضع أخر:

"إن علمانية الهند معناها أنها لا تميز دينا بمكانة خاصة، ولا ترجح دينا على دين آخر، وفي الوقت نفسه تحترم كل الديانات. وأما السر وراء وجود الديانات المتعددة في الهند فهو أن الهند استقبلت كل أصحاب عقيدة بلا حجر أو تميز وهو قد دعا المسلمين إلى مد يد التعاون لإخوانهم الهندوس والسيخ والمجوس. واتخذ الكفاح من أجل نيل الحرية والاستقلال الوطني واجباً دينياً يجب على المسلمين أن يساهموا في ذلك بكل ما لديهم من طاقات مادية ومعنوية، يقول:

" إنني ذكرت المسلمين قبل ١٢ سنة بواسطة مجلة "الهلال"، بأن التفاني في سبيل نيل الحرية والاستقلال الوطني تراثهم الإسلامي القديم، بل واجبهم الإسلامي يفرض عليهم أن يخلفوا جميع الأحزاب التي تسعى لنيل هذه الغاية المنشودة. ولمتذهب دعواتي سدى، بل قرر المسلمون إنقاذ

وطنهم الغالي من أغلال وقيود الاستعباد بالوقوف مع إخوانهم الهندوس، والسيخ، والمسيحيين والمجوس[9].

دلت هذه العبارة على أن الهند وطن لكل من الهندوس والمسلمين والسيخ، والمجوس والمسيحيين، ولا يمكن نيل الحرية والاستقلال الوطني بدون تعاون بناء فيما بينهم وبدون الجهود المشتركة.

والجدير بالملاحظة أن آزاد عندما يدعو إلى الاتحاد بين الهندوس والمسلمين فهو لم يدع بذلك إلى اتحادهما فحسب، بل يدعو بذلك إلى إيجاد، الاتحاد فيما بين الطوائف الهندية الأخرى، ويعترف بأن الهند مهدا للديانات المختلة، لا يمكن تقدمها وازدهارها ورخاؤها كأمة هندية بدون التعايش السلمي الذين أصبح ضرورة حتمية لكل مجتمع إنساني يسعى إلى الأمام ولقد أصدر مولانا أبو الكلام آزاد مجلات عديدة لنفخ روح الحرية والاستقلال والتوحد، ولم شمل الهنود، لكي يعملوا متكاتفين ومتعاونين فيما بينهم لاستعادة سيادة وطنهم الغالي، وإنقاذ الأمة الهندية من حفر المذلة والهوان، ولكي يفهموا أن مصيرهم مشترك تربطهم الصلات القومية والوطنية، ووشائج القربى والجوار.

وأعلن من منابر مختلفة بأنه لا يمكن تصور بقاء الهندوس بدون المسلمين في الهند وبالعكس.يقول:

" لو إن العالم كله وطن لنا ونحترمه من أجل ذلك فالوطن الذي نتنفس في أجوائه منذ قرون عديدة يستحق منا الاحترام والمحبة من باب أولى، لو أن أفراد الإنسانية كله إخواننا، فأبناء وطننا الذين يردون نفس المناهل التي نردها لشرب المياه، ويحبون الأجواء التي نحبها يستحقون منا المحبة والاحترام من باب أولى[١٥].

وقد سعى مولانا أبو الكلام آزاد من أجل الحفاظ على حقوق المسلمين والسيخ والمسيحيين والمجوس وكان يؤمن بأن الموقف العادل تجاه الأقليات في الهند سيعزز القومية الهندية، ويكون خطوة أساسية ذات أهمية بالغة في تشكيل مجتمع هندي متماسك لا تزلزله الرياح الهوجاء مهما كانت شديدة.

وعند لم تنتخب لجنة حزب المؤتمر العاملة السيد "نريمان" الذي كان مجوسيا ـ الوزير الأعلى لمحافظة بومبائي احتج أبو الكلام آزاد على هذا القرار. يقول:

" رغم أن المجوس أقلية صغيرة في الهند، لكنني، أحس بأنه يجب، أن يكون لهم مكان في الحكومة الآتية".

لقد ذكرنا اقتباسات عديدة من كتابات مولانا أبو الكلام آزاد في السابق، ويمكن تلخيص ما كتبه آزاد حول هذا الموضوع الذي نحن بصدد البحث، فيما يلي:

(١) يجب على الهنود أن يتمسكوا بوجهة نظر عالمية، ويعملوا بعيدين عن كل نوع من أنواع التعصب الذميم، والضيق في أفق التفكير.

(٢) يعتبر الرصيد الحضاري الهندي، الذي هو نتاج قرون عديدة، ثروة مشتركة، والحفاظ عليه واجب وطني يجب على المواطنين أن يحفظوه من التقسيم.

(٣) ترك التعصب اللساني بأسره، تتطور اللغة الهندية كلغة وطنية، لكن تتطورها لا يعني أبداً في نظر آزاد أن اللغات الأخرى لا تجد الفرص الكافية للنمو والتطور، وتعامل معها معاملة التعصب.

(٤) تعيش الديانات الموجودة في الهند في تعايش سلمي، ويحترم أصحاب ديانة لتقاليد ديانة أخرى، لأن العظمة التاريخية للهند تكمن في المجاملة الدينية.

(٥) إيقاظ وعي الوحدة الهندية في الهنود، وترك التفرقة المبنية على تصورات الأقلية والأكثرية والاستعداد لمواجهة مؤامرات الاستعمار الإنجليزي.

(٦) وكتابات آزاد عبارة عن رسالة للشباب، وذكرى للماضي وتصور للمستقبل الزاهر، وشعور بالحياة، وحماس للعمل.

كانت هذه النقاط المهمة التي لخصناها من كتابات مولانا أبو الكلام آزاد، الوثيقة الصلة بموضوعنا في هذا المقال.

أهمية أفكار آزاد في هذا العصر:

الواقع أن أهمية مشاعر آزاد وأفكاره حول الاتحاد بين الهندوس وبين المسلمين، والانسجام الطائفي مازالت باقية حتى الآن، بل زادت أهميتها في هذا العصر، لأن المجتمع الهندي يعاني من التفكك والانحلال من داخله، لتلك التفرقة العنصرية التي تقوده إلى الاستعباد الفكري. والاستعباد الفكري مرض لا يمكن دواؤه ويرجى شفاؤه إذن، لا بدلنا أن نحضر خريطة جديدة لتعمير البلاد

وتطويرها في ضوء تلك المعالم التي نصب آزاد لتطويرها وتعميرها. ويجب على الهندوس أن يثقوا بإخوانهم المسلمين، والمسلمون بإخوانهم الهندوس لسلامة الحرية والاستقلال.

الذي هو ثمرة التضحيات الكبيرة. ولا يمكن إبادة الملايين من البشر بإثارة المعارك والاضطرابات كما لا يمكن ازدهار الهند كدولة لها كيانها بإزعاجها وإضعافهم. ويجب على العصابات، الفاشية للهندوس أن تتغير سلوكها، كما يجب على المسلمين ترك النزعات الانفصالية والوقوف إلى جانب أولئك الناس الذي يحملون في أياديهم سراج الوحدة، ويحافظون على القيم الديمقراطية الحقة التي تتوقف عليها السيادة الهندية، ويجب على الهنود أن يرفعوا رايات المحبة والسلام بدلا من التقزز والكراهية، وأن يعتزموا أنهم يتحملون كل الصعاب والمشاكل من أجل النهوض بوطنهم الغالي.

لا ينهض الشعب إلا حـــين يدفعه

عزم الحياة، إذا ما استيـــقظت فيه

والحب يخترق الغبـــــراء مندفعا

إلى الســـــــــماء إذا هبت تناديه

والقيد يألفه الأمـــــوات ما لبثوا

أما الحياة فيبــــــــليها وتبليه

وهو يدعو الهنود إلى شق طريقهم في الحياة، والنهوض بأمتهم الهندية بأعمالهم القيمة، غير مكترثين بتلك الصعاب التي تعترض سبيلهم، لأن الإنسان الذي لا يخشى وعورة المسالك ومخاوف الدجى يصل إلى قمم الجبال العالية.

واملأ طريقي بالمخاوف والدجى

وزوابــــــع الأشـــواك والحصباء

وانثر عليه الرعـــــــب، وانثر فوقه

رجم الردى وصـــــــــواعق البأساء

سأظل أمـــــــــشي رغم ذلك عازفا

قيثارتي متـــــــــــرنما بغنائي

النور في قلبي وبيـــــــن جوانحي

فعلام أخشى السيـــــــر في الظلماء

وتطويرها في ضوء تلك المعالم التي نصب آزاد لتطويرها وتعميرها. ويجب على الهندوس أن يثقوا بإخوانهم المسلمين، والمسلمون بإخوانهم الهندوس لسلامة الحرية والاستقلال.

الذي هو ثمرة التضحيات الكبيرة. ولا يمكن إبادة الملايين من البشر بإثارة المعارك والاضطرابات كما لا يمكن ازدهار الهند كدولة لها كيانها بإزعاجها وإضعافهم. ويجب على العصابات، الفاشية للهندوس أن تتغير سلوكها، كما يجب على المسلمين ترك النزعات الانفصالية والوقوف إلى جانب أولئك الناس الذي يحملون في أياديهم سراج الوحدة، ويحافظون على القيم الديمقراطية الحقة التي تتوقف عليها السيادة الهندية، ويجب على الهنود أن يرفعوا رايات المحبة والسلام بدلا من التقزز والكراهية، وأن يعتزموا أنهم يتحملون كل الصعاب والمشاكل من أجل النهوض بوطنهم الغالي.

لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه

عزم الحياة، إذا ما استيقظت فيه

والحب يخترق الغبراء مندفعا

إلى السماء إذا هبت تناديه

والقيد يألفه الأمـــوات ما لبثوا

أما الحياة فيبـــــليها وتبليه

وهو يدعو الهنود إلى شق طريقهم في الحياة، والنهوض بأمتهم الهندية بأعمالهم القيمة، غير مكترثين بتلك الصعاب التي تعترض سبيلهم، لأن الإنسان الذي لا يخشى وعورة المسالك ومخاوف الدجى يصل إلى قمم الجبال العالية.

وامـــــلأ طـــريقي بالمخاوف والدجى

وزوابـــــع الأشـــواك والحصباء

وانثر عليه الرعـــــــب، وانـــثر فوقه

رجم الردى وصـــــــــواعق البأساء

سأظل أمـــــــــشي رغم ذلك عازفا

قيثارتي متـــــــــــــرنما بعنائي

النور في قلبي وبيـــــــن جوانحي

فعلام أخشى السيـــــــر في الظلماء

خلاصة القول ـ كان آزاد يريد من وراء كتاباته وخطبه إيجاد الوحدة الهندية لاعتقاده الجازم بالتراث الهندي المشترك الذي هو ثمرة احتكاك طويل بين الشعوب الهندية المشتركة التي نشأت بين أحضانها وتسنمت الأجواء الهندية الفياضة، وأقامت خيامها في ربوعها، وأناخت راحلتها في أرضها واستقرت في أرجائها إلى أبد الآبدين. وينادي بصوت أعلى: يأيها المتنافرون اتحدوا، وقفوا صفا واحدا، وانبذوا الخلافات، فإن فوق الاختلافات الدينية رابطة أقوى وأمتن، وهي رابطة الإنسانية، منطلقا في ذلك كله، من تعاليم القرآن الحقة الذي ينادي البشر بقوله:

إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون.

وتكملة للبحث يناسب لنا أن نذكر بعض الأديان الكبرى في الهند الذي ذكرها مولانا أبو الكلام آزاد.

الديانات المختلفة وذكرها في كتابات مولانا أبو الكلام آزاد:

(١) الهندوسية:

الهندوسية ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند وقد تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد. إنها ديانة

تضم القيم الروحية، والخلقية إلى جانب المبادئ القانونية والتنظيمية، متخذة عدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها فلكل منطقة إله ولكل عمل إله أو ظاهرة إله.

الآريون الغزاة الذين قدموا إلى الهند في القرن الخامس عشر قبل الميلاد هم المؤسسون الأوائل للديانة الهندوسية، وفي القرن الخامس قبل الميلاد تطورت الهندوسية على أيدى الكهنة البراهمة الذبن يزعمون بأن في طبائعهم عنصراً إلهيا، ثم تطورت مرة أخرى في القرن الثالث قبل الميلاد عن طريق قوانين (منو شاستر).

نظرة الهندوسية إلى الآلهة:

لا يوجد توحيد بالمعنى الدقيق، لكنهم إذا أقبلوا على إله من الآلهة أقبلوا عليه بكل جوارحهم حيث تختفي عن أعينهم كل الآلهة الأخرى. وعندها يخاطبونه برب الأرباب أو إله الآلهة.

التعدد: يقولون بأن لكل نافعة أو ضارة أنها يعبد، كالماء والهواء والأنهار والجبال، و هي إلهة كثيرة يتقرب إليها بالعبادة والقرابين.

التثليث: في القرن التاسع قبل الميلاد جمع الكهنة الآلهة في إله واحد أخرج العالم من ذاته وهو الذي أسموه.

براهما: من حيث هو موجد

فشنوه: من حيث هو حافظ

سيفا: من حيث هو مهلك.

المعتقدات:

تظهر معتقدات الهندوس في الكارما، وتناسخ الأرواح، والانطلاق، وحدة الوجود. لقد ذكر مولانا أبو الكلام آزاد الهندوسية في مواضع عديدة، لكنه أسهب الكلام في أمرها في تفسيره ترجمان القرآن ضمن بحثه التصورات العالمية حول الصفات الإلهية. يقول آزاد:

" إن تقدم مفهوم تعرض له الذهن الإنساني هو مفهوم التوحيد، يعني مفهوم قوة أعلى وذات غير مرئي، خلق الكون وما فيه بقدرته، لكن الإنسان تراجع عن إيمانه بالتوحيد ونشأ لديه مفهوم تعدد الآلهة ببطء وقد اشتركت القوى الأخرى في التأله مع الله تعالى واستسلم الإنسان لآلهة متعددة بدلا من الواحد الأحد".

ثم ذكر بعض النظريات الحديثة حول مفهوم التوحيد وأظهر بطلانها ببراهين قاطعة، ثم ذكر المفاهيم الدينية الخمسة السائدة في العالم حول مفهوم التوحيد وقت نزول القرآن الكريم.

وذكر من بينها التصور الهندي للتوحيد. وذكر خلاله المذهب الهندوسي، فيقول:

" إن تاريخ تصور الألوهية يشير إلى وجود المفاهيم المضادة في الهند، لأن الفلسفة التوحيدية الهندية تختلف تماما عن المسلك العملي للهنود، والفلسفة التوحيدية الهندية اجتازت مراحل عميقة لاستغراق الفكر والعمل، حيث أنها وصلت إلى السمو الفكري، لكن المسلك العملي اختار طريقة الإشراك بالله، ووسع في دائرة المعبودات حتى أصبح كل حجر وشجر إلها معبودا لدى الهنود. على كل إن التصور الهندي، سما إلى العلاء نظراً إلى جانبه الفكري، ووقع في هاوية نظراً إلى جانبه العملي، ولذلك اختار خواص الهنود لأنفسهم التوحيد، واختاروا سبيل الشرك وتعدد الآلهة لعامة الناس.

ثم يذكر تصور التوحيد في الأوباينشاد. ما هي الأوباينشاد؟ تقول جريدة " دي هندو" الإنجليزية:

إن الأوباينشاد تتألف من الأجزاء النهائية لفداء، والتي تعد مرجعا كتابياً رئيسا للهندوسية[12].

يقول آزاد:

عند ما نقرأ ترنيمات الرج فيدا يبدو أن تصور عبادة مظاهر القدرة ينتشر ويتجسم من جانب، بينما يبدو تصور توحيد خالق الكون: ومضى قائلا: إن تصور التوحيد يبدو واضحا فى ذلك العهد القديم الذي لم يتم فيه ترتيب ترنيمات الرج فيدا، وتقلص غمار الإلهة التي بلغ عددها إلى ٣٣٣ في دوائر ثلاثة وهي الأرض، والجو، والسماء. وتجسم في شكل رب الأرباب، ثم تقلص تصور رب الأرباب وتظهر ذات إلهي أعلى التي تتجسد أحيانا في شكل " ورون" وأحيانا في مشكل " إندر" وأحيانا في شكل " أكني". لكنها في النهاية ينشأ تصور خالق الكون الذي بسمى " برجابتي" رب العالمين، ويدعي باسم " وشو أكرمن" خالق الكون، هو واحد لكن الناس يدعونه بأسماء شتى[13]. وهذه المبادئ قد تجسدت في شكل التوحيد الوجودي في الأوبانيشاد. ثم يعترف آزاد بظهور تصور التوحيد في الرج فيدا لكنه كان مشوبا بالإشراك بالله. يقول:

" بعد النظر في هذه الصفات الإلهية يظهر تصور أعلى للتوحيد، تظهر الصفات السلبية و الإيجابية مثل الأحد، الصمد، الأول الآخر، لا يمكن إدراكه، واجب وجوده. لكن سمو هذا

التصور التوحيدي لا يخلو من شائبة الإشراك بالله.
وهكذا لا تتجلى عقيدة التوحيد في الصفات مع عقيدة التوحيد في الذات. يقول الدكتور "رادها كرشنان" إن تصور الإشراك بالله قد رسخ في أذهان الهندوس بحيث لا يمكن استيصاله بيسر وسهولة، إلا أن تصور الذات الأعلى قد غلب عليهم. وكل واحد منهم استسلموا لها."

وهناك نصوص تقول أن الإله " أكني" لا تستطيع أن تقوم بعمل ما بغير نصرة الذات الأعلى (براهما) وكل الآلهة تقوم بأعمالها المكلفة إليها خوفاً من (براهما) الذات الأعلى (تيتريا أوباينشاد).

ثم بعد ذلك يشير إلى حقيقة هامة وهي أن نزعة المفاهمة بين تصور الخواص للتوحيد وبين التصور الاشتراكي في التوحيد، ما تزلزلت، بل رسخت وتوسعت دائرتها، وثم الاعتراف بأن السالك عند ما تجتاز مراحل معرفة الحقيقة، يتلاشي كل شيء ما سوى تلك المعرفة. لكنه لا بد من عبادة هذه الآلهة ما لم يصل السالك إلى الدرجات الأعلى للمعرفة. هكذا ظهرت طبيعة مزدوجة لتصور التوحيد لدى الهنود. ثم يدعي آزاد بأن المذهب العملي في الهند قد نشأ من الشرك في الصفات والشرك في العبادات ولذلك تلاشي تصور التوحيد في العقيدة الهندوسية. وأصبح سرا لا يمكن

إدراكه إلا لعارف وصل إلى المرتبة الأعلى للمعرفة[14] وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الشرك بقوله:

" ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى (الزمر) خلاصة القول أن الهندوسية دين نشأت في الهند وترعرعت فيها وهي تنتمي إلى الأديان الآرية القديمة التي تطورت مرات عديدة، وظهرت فى المشكل الذي نجده اليوم في القرن الثالث قبل الميلاد.

البوذية:

هي ديانة ظهرت في الهند بعد الديانة البرهمية في القرن الخامس قبل الميلاد، كانت في بدايتها متوجهة إلى العناية بالإنسان كما أن فيها دعوة إلى التصوف والخشونة ونبذ الترف والمنادات بالمحبة والتسامح وفعل الخير لكنها لم تلبث بعد مؤسسها أن تحولت إلى معتقدات باطلة ذات طابع وثنى، ولقد غالى أتباعها في مؤسسها حتى ألهوه، للبوذية أفكار ومعتقدات أخرى قد ذكرها آزاد في ترجمان القرآن. يقول:

" إن البوذية ظهرت بعد ظهور الديانة البرهمية، وكان معظم أهل الهند يعتنقونها وقت

ظهور فجر الإسلام في الجزيرة العربية. لقد زعم المستشرقون أن الديانة البرهمية كانت استغراقا عمليا لتعاليم الأوباينشاد، أن النجاة تكمن في "نروان" يعني ذلك إن الإنسان سيرجع إلى أصله الذي فد تم تكونيه وهذا هو "نروان" يعني النجاة لكن الاعتقاد عام هو أنه لا يوجد الإله والروح في ذلك وأن دائرة الاعتقاد والعمل قد ضاقت في السعادة الدنيوية والنجاة الدنيوية[15].

قد علم من هذا التصريح أن الديانة البوذية قد نشأت في الهند وانتشرت في ربوعها وخارجها.

ثم يذكر أن الديانة البوذية قد أصرت على ثمانية أمور لنيل السعادة وهي :

(١)الانجاه الصحيح الخالي من للذة والشهوة

(٢) التفكير الصحيح الذي لا يتأثر بالأهواء

(٣) الإشراق الصحيح

(٤) الاعتقاد المستقيم

(٥) مطابقة للسان لما في القلب

(٦) مطابقة السلوك للقلب واللسان

(٧) مطابقة الصحيحة التي يكون قوامها هجر اللذات

(٨) الجهد الصحيح المتجه نحو استقامة الحياة على العلم والحق وترك الملاذ.

ثم يقول إن معتقدي هذه الديانة قد انقسموا إلى قسمين:

(١)هنسيمان المذهب الجنوبي ـ هؤلاء اعترفوا بشخصية واتبعوا تعاليمه.

(٢) مهايان ـ المذهب الشمالي وقد غالي أهله في بوذا حتى ألهوه.

الإسلام:

الإسلام ديانة ظهرت فى القرن السادس الميلادي في الجزيرة العربية. وذاع صيته الآفاق في مدة قليلة وانتشر في جنوب آسيا، والشرق الأوسط، ووصل إلى شبه القارة الهندية في نهاية القرن السابع الميلادي، وانتشر في ربوعها وأرجائها[16].

الإسلام يأمر أتباعه بالإيمان بالله ورسله وملائكة وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره والبعث بعد الموت.

لقد أنـزل الله تعالـى الكـتاب (القـرآن) علـى عـبده ورسـله لهدايـة الـناس الـذين انحـرفوا عـن جـادة الحـق والصـراط المسـتقيم. وحرفوا فـي الكـتب السـماوية القديمـة ويبتـى، والأحكـام الإسـلامية مستخرجة مـن القـرآن والأحـاديث النبوية الذين يعتبران المصـدران الأصيلان لكل التعاليم الإسـلامية.

كـان مـولانا أبـو الكـلام آزاد مسـلما بعقيدة وفكـره لأنـه قـد درس الإسـلام، وفهـم روحـه وحـاول إفهـام معانـيه للآخـرين. يقـول آزاد:

"أنـا مسلم أنا فخور بأنني مسلم، ورثت عن آبائـي تـراثا إسـلاميا ضـخما، إنـني لسـت راض بأن أتــرك ولــو قطعــة صــغيرة مــنه، لأن التعالــيم الإسـلامية والعلـوم الإسـلامية والحضـارة الإسلامية أصـول ثروتي والحفاظ عليها واجبي[17]."

وقـد درس القـرآن بـل عـايش معـه ودعـا النـاس إلـى المعـايشة معـه، والتحـرك بـه، لأن الكلمـة فـي كـتاب الله تأخـذ معانــي أعمـق وأوسـع، وتحـتل مـن نفسه مساحات أعظم وأشمل، وذلك تتحـول فـى كتاب الله إلـى كـتاب حـي يمـوج بـتلك الحـياة المـرتبطة بـالأزل الـذي تصـب فيه أفكـار الماضـي والحاضـر والمسـتقبل، والكلمـة القـرآنية تحـيا فـي أجـواء الآيـة، وتـتفاعل معهـا أخـذا وعطـاء والآيـة ترتـع فـي

ربيع السورة وتستريح ظلالها وتنهل من نبعها. وتقتبس من نورها، والسورة تهطل من روح القرآن ومعانيه مضخمة بنوره وعطره وكان يؤمن إيمانا جازما بأن النجاة الحقيقة والسعادة الحقة تكمن في العمل على تعاليم القرآن لكونه كلاماً إليها أنزله على عبده خاتم الأنبياء لهادية البشر إلى يوم الدين ولذلك قد وعد بحفظه إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون وذلك لأن آزاد قد بحث نفسه عن الدين الحق في الكتب المختلفة للديانات المختلفة. ولقى لهذا الغرض مع الرهبان والقدسسين وسالهم عن الحقيقة، ومع ذلك بحث الحقيقة فى القرآن الكريم. رغم أن آزاد قد ولد بيت مسلم يحافظ على التقاليد القديمة، لكنه ما اقتنع بذلك الدين، بل أسلم إسلاما حقيقيا بعد البحث والتفكير، يقول:

" أنا ولدت في بيت مسلم، ولكن الغريب في أمري إنني لست مطمئنا إلى ذلك الدين الذي ورثت عن آبائي، وعند ما قدرت على فصل نفسي منه تركته وبدأت البحث عن الحقيقة بقلب خال من ملابسات الدين الذي ورثته عن آبائي[18].

ونتيجة لدراسة عميقة للقرآن الكريم، هو قد دعا إلى محاربة التقاليد الدينية المزعومة، وهي لا تحث إلى الدين الإسلامي بصلة وذكر المسلمين بواجبهم الديني ومسؤوليتهم

الدينية، وقد استاثر العالم الإسلامي وأوضاع المسلمين باهتمامه البالغ على نحو ما كان عليه العلماء الأجلاء أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وغيرهم. يكفي أن نشير هنا إلى مقالات القيمة المنشورة على صفحات تلك الجرائد التي تولى إدارتها. لندرك المدى الذي بلغه في هذا المجال فقد نتبع أحوال المسلمين في أقاصي الأرض، وعالج مشاكلهم بكثير من العمق والحماسة والدأب، كما تحدث بإسهاب عن شاساة الشعوب المسلمة في أرجاء المعمورة في كتاباته.

النصرانية:

هذه ديانة توجد في الهند، والمسيحيون هم أقلية صغيرة في الهند. هي الديانة المسيحية التي أنزلت على عيسى عليه السلام. مكملة لرسالة موسى عليه السلام. متممة لما جاء في التوراة من تعاليم، موجهة إلى بني إسرائيل، داعيه إلى التهذيب الوجداني والرقي العاطفي والنفسي، لكنها سرعان ما فقدت أصولها، مما ساعد على امتداد يد التحريف إليها. حيث ابتعدت كثير عن صورتها السماوية الأولى لامتزاجها بمعتقدات وفلسفات دينية.

يقول أبو الكلام آزاد في المسيحية:

وكانت الديانة المسيحية ثاني أكبر ديانة إسرائيلية. كل تعاليم الدعوة المسيحية موجودة أمامنا. فكل ما يقوله المسيحيون

نسبة إلى عيسى عليه السلام لا نقبله، قال عيسى عليه السلام، بعثت لإقامة تعاليم التوراة، ولا أدعو إلى الدين الجديد، (متى ١٧١) وصرح بأن بعثة كانت لإصلاح بني إسرائيل ونهى عن إعلان دعوته في أمم أخرى.

وقد ادعى آزاد بأن الأمم المسيحية التي انتشرت في أرجاء المعمورة بعد القرن الميلادي الأول كانت لا تتخذ تعاليم المسيح عليه السلام نقطة انطلاق في أعمالهم الدينية. وهي كانت تتبع تعاليم يهودي يوناني مثقف يسمى " ببولس" ومن هنا بدأت غلبة الكنائس على الدين المسيحي، التي كانت تلفق في الدين المسيحي الأشياء الجديدة خدمة لمصالحها الدنيوية وكانت تلك الكنائس وصمة عار للمسيحية.

ويقول آزاد:

عند ما انهزمت القوى المسيحية وبدأ عصر الحضارة غير الديني، وتحررت أوروبا من استعباد الأحزاب الدينية، بدأ عصر الحضارة والعلم في القارة الأوروبية.

على كل أن المسيحية ديانة كبرى في العالم، ويقطن معتنقوها في الهند كأقلية دينية، والهند مهد لهذه الديانة.

من الأحرى بنا أن نذكر في هذا المقال الديانات الأخرى لكنها نتركها خوفا من الإطناب والإطالة:

وتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون. (القرآن).

المراجع:

[١] - مضامين آزاد، ج:٤ ص: ٣٠،
[٢] - خطبات آزاد، ص: ٢٩٧
[٣] - المرجع السابق، ص: ٣٠٥
[٤] - ترجمان القرآن، ص: ٥١-٥٢
[٥] -خطبات آزاد،ص: ٢٩٨
[٦] - الرج فيدا، ص: ٨٥
[٧] -انتخاب زميندار، ص: ١٤٦
[٨] - تحريك أزاد، ص:٥٠
[٩] - قول فيصل- ص: ١٠٠
[١٠] India Wins Freedom, P.120-
[١١] - ترجمان القرآن، ص: ١٢٣
[١٢] The Hindu (Religion) Date. 18-3-2003 -
[١٣] _ ترجمان القرآن، ص: ٢٧٤ -
[١٤] - المرجع السابق، ص: ٤٧٠
[١٥] - المرجع السابق، ص: ٢٧٣

---

[16] - القرآن - الحجر

[17] - خطبات آزاد، ماالك رام، ص: ٢٩٧

[18] - ذكر آزاد عبد الرزدان، سليم آبادي، ص: ٢٤٩

المراجع:

(١) ترجمان القرآن: مولانا أبو الكلام آزاد

(٢) ولادت نبوي: مولانا أبو الكلام آزاد

(٣) قول فيصل : مولانا أبو الكلام آزاد

(٤) تذكره : مولانا أبو الكلام آزاد

(٥) تحريك أزادي: مولانا أبو الكلام آزاد

(٦) مضامين آزاد: مولانا أبو الكلام آزاد

(٧) مولانا أبو الكلام ايك همه كير شخصيت: رشيد الدين صديقي.

(٨) حجة الله البالغة: الشاه ولي الله الدهلوي

(٩) خطبات آزاد: مالك رام

(١٠) الرج فيدا

(١١) انتخاب زميندار: عتيق أحمد صديقي

(١٢) ذكر آزاد

(١٣) تاريخ المذاهب الإسلامية: محمد أبو زهرة

(١٤) اسلام بلا مذاهب: مصطفى الشكعة

(١٥) أضواء على المسيحية : متولى يوسف شلبي

(١٦) أديان العالم الكبرى: ترجمة: حبيب سعيد

(١٧) أبو الكلام آزاد: ضياء الدين الإصلاحي

(١٨) ديوان أبي القاسم الشابي

(١٩) شوقيات

المجلات:

(١) مجلة الجمعية الأردوية، آزاد نمبر

(٢) مجلة لسان الصدق

(٣) مجلة الهلال

(٤) مجلة البلاغ

(٥) جريدة " دي هندو "

(1) The Hındu

(2) India Wins Freedom by Abul Kalam Azad

(3) Encyclopedia India 2001



الهند كمهد للديانات في ضوء كتابات مولانا أبو الكلام آزاد

ـ سعيد الرحمن محمد حسين

المقدمة:

لما عزمت عزما مصمتا على الكتابة حول هذا الموضوع جمعت مجموعة كبيرة من كتب " أبو الكلام آزاد" وبدأت أتصفح فهارسها ومحتوياتها رجاء الوقوف على المواد العلمية المتعلقة بالموضوع. وبحثت بحثا حثيثا عن الديانات وتاريخها ونشأتها وتطورها في كتبه. ولكني أخفقت إلا أني وجدت لمحات خاطفة في الديانات القديمة الهندية منها وغير الهندية مثل البرهمنية (الهندوسية) والبوذية والمجوسية واليهودية والنصرانية التي لم تكن تمت إلى موضوع المقالة صلة ما. فتحيرت وقلقت قلقا شديدا. ولكن الحيرة أو القلق لم يستطع أن يمنعني عن عزمي وبدأت أقرأ كتابا بعد كتاب. وبعد قراءة مجموعة كبيرة من كتبه وخطاباته وبعد المقارنة بين أفكاره ومعتقداته وبين أحداث حياته ظهر لي

معنى هذا الموضوع واضحا جليا. إنه جعل همه الوحيد طول حياته الاحتفاظ بالوحدة الوطنية والاحتفاظ على المجتمع متعدد الديانات المختلفة. وهذه خلاصة حياته التي ظل يعلن عنها طول الحياة. نجده يقدم فكرة وحدة الدين في ضوء كتاب الله التي تعلم الناس احترام كافة الديانات واتباعها والتسامح بينهم وبناء على هذه الفكرة الصالحة العميقة نجده يشن حربا شواء ضد المنظمات أو الحركات الطائفية ويدعو المسلمين المنعزلين عن السياسة الوطنية إلى الوحدة والتضامن وأن يثقوا بإخوانهم الهندوس الذين كانوا يبذلون كل نفيس وغال لأجل تحرير الوطن من براثن الاستعمار. ولتحقيق هذا الهدف النبيل أصدر صحيفة " الهلال" عام ١٩١٢م واستمرت تنشر مقالات ثورية ملتهبة توقظ المسلمين من سباتهم وترشدهم إلى واجباتهم تجاه دينهم ووطنهم إلى سنة ١٩١٥م. ولما أطلق سراحه في سنة ١٩٢٠م. بدأ يوحد صفوف الهندوس والمسلمين على رصيف القومية المتحدة مستخدماً حركة الخلافة وحركة اللاتعاونية. ولما انتخب رئيسا للمؤتمر الوطني ركز تركيزاً بالغاً على قضية القومية المتحدة والوحدة الوطنية وظل يخوف المواطنين عن خطورة الحركات الطائفية من الهندوس والمسليمن. وأعلن سنة ١٩٤٠م بكل صراحة أن الهند لا تحتاج إلى أي حركة إسلامية أو هندوسية بل تحتاج إلى حركة واحدة وهي المؤتمر الوطني الهندي. وأن الهند ليست للهندوس وحدهم أو

للمسلمين وحدهم بل هي لجميع الأقوام والشعوب الهندية التي أصبحت قوما واحدا وأمة واحدة. كما قال : " نقبل أو لا نقبل أصبحنا أمة واحدة، لا يمكن الفصل بين عناصرها وأجزاءها ولا تستطيع أي فكرة أو أيدولوجية أن تشتت هذه النزعة القومية الموحدة فيجب أن نرضى بقضاء الله وقدره وأن نتقدم لتطوير هذه الحياة الجديدة". وأنا على يقين أن موضوع المقالة يتفق بهذه الفكرة. وهذا هو الشيء المطلوب منا. لذا جعلت مقالتي تدور حول هذه الفكرة التي بينتها آنفا. واستعرضت أفكار أبو الكلام آزاد الصريحة المعلنة والجهود التي بذلها في شأن الوحدة الوطنية والقومية المتحدة والاحتفاظ على المجتمع متعدد الديانات والثقافات وأظن أني أدركت الحقيقة والله أعلم بالصواب.

وقفة مع موضوع المقالة:

نستطيع أن نستنبط من هذا العنوان " الهند كمهد للديانات في ضوء كتابات أبو الكلام آزاد" معاني عدة: وهي أن الهند كانت مهدا للديانات في الماضي كما ذكر أبو الكلام آزاد تاريخ بعض الأديان وأحوالها حسب التسلسل الزمني. وكذلك اليوم أيضا هي مهد للديانات المختلفة مثل الديانة الهندوكية والإسلام، والبوذية، والنصرانية والسيخ وغيرها. وهي (الهند) صالحة لجميع هذه الديانات ولأصحابها حيث يمكن لهم أن يعيشوا فيها بأمن وسلامة

وطمأنينة وستكون في المستقبل أيضا صالحة لهذه الديانات كلها، إذ رجع أصْحابها إلى تعاليمها الأساسية. ونقول هذا نظراً إلى وجهة نظر " أبو الكلام آزاد" الدينية، لأن نظريته الدينية شاملة جداً. هو صاحب " فكرة وحدة الدين". أي أن الدين للنوع البشري كله واحد، وهو: الإيمان بالله والعمل الصالح والدعوة إلى الخير. فإذا فهم أصحاب الديانات هذه الحقيقة لما بقى لهم خلاف ولا جدال ولا قتال فيما بينهم. ويمكن لهم أن يعيشوا في ظل الدولة العلمانية بأمن وسلامة وسعادة. وأكبر الظن أن نظرية " القومية المتحدة" قد قامت على هذه الفكرة العميقة كما تظهر من كتاباته وخطاباته منذ دخل في السياسة الوطنية إلى أن توفى رحمه الله. فقد ركز "أبو الكلام آزاد" على ترسيخ فكرة القومية المتحدة في أذهان المواطنين تركيزا بالغا وانفق قسطا كبيرا من عمره وقواه الفكرية في تعميمها لبناء دولة ديموقراطية لكي يعيش في ظلها أصحاب الديانات المختلفة آمنين سالمين متآزرين متعاونين. وبناء على هذه الفكرة خالف تقسيم البلاد باسم العقيدة والدين وخالف أيضا نظرية القوميتين ولكن لم يتحقق حلمه الجميل للهند العظيمة وقسمت البلاد إلى قسمين (ثم إلى ثلاثة) فبكى عليها بكاءً حاراً مراً.

أظن أن هذا الموضوع يدور حول نظرية وحدة الدين، النظرية التي تقوم عليها القومية المتحدة. وهي تضم أقواما وشعوبا مختلفة في جنبها. وتحقيقا للقومية المتحدة والتضامن بين

الشعوب الهندية المختلفة أنفق أمام الهند مولانا "أبو الكلام آزاد" حياته كلها لكي تبقى الهند متحدة متماسكة ومتضمنة أقواما مختلفة، وديانات مختلفة وحضارات مختلفة في وحدة كاملة. هذا ما نفهم من الموضوع والله أعلم بالصواب. ولكن نظرا إلى ظاهر الموضوع نلم بذكر تلك الديانات التي ذكرها " أبو الكلام آزاد" في بعض كتبه.

فلسفة الدين عند " أبو الكلام آزاد":

يقول مولانا " أبو الكلام آزاد" في ضوء الدراسات الدينية في القرن العشرين: أن الناس في الزمن القديم كانوا على عقيدة التوحيد مهما كان دينهم أو بلادهم. ودخل فيه الشرك في الأزمان المتأخرة. فتبث أن جميع الأديان كانت على عقيدة التوحيد ولكنها تعرضت للشرك والخرافات فيما بعد من العصور لما دعت إليه الأحوال والعوامل[1].

الدين في نظريته ليس بمقيد في ديانة أو قوم واحد، أو شعب واحد بل هو عام للإنسانية كلها. كذلك الدين ليس محدودا في الإسلام أو في النصرانية أو في اليهودية بل هذه طرق، وصور للوصول إلى الدين. كان الإنسان في الأزمان الأولى على دين واحد وكان النوع البشري كله أمة واحدة ولكن لما تكاثرت الأجيال البشرية وانتشرت في أرض الله وكثرت فيهم أسباب المعيشة ظهر

فيهم الخلاف والشداد فتحزبوا وتشيعوا وتقاتلوا وقسموا الدين حسب انقسامهم إلى أحزاب وشيع، فأرسل الله تعالى أنبياء ورسلا في كل عصر وفي كل أمة إصلاحا لما أفسدوه في الدين ودعوهم إلى دين واحد. كانت دعوة الأنبياء والرسل في كل عصر إلى دين واحد ولكن الشرائع كانت دعوة الأنبياء والرسل في كل عصر إلى دين واحد ولكن الشرائع كانت مختلفة لاختلاف الأزمان وأحوال الناس ونزعاتهم وميولهم. وقد أمر الله سبحانه تعالى باعتراف هذه الاختلافات في الشرائع وبالتسامح بين الأديان المختلفة، لأن هذه الخلافات كلها تقوم على الفروع لا على أصول الدين.

كان أصحاب الديانات المختلفة على تصور الدين الخاطئ قبل بزوغ شمس الإسلام فكانت النصارى تعتقد أنها هي وحدها على الدين وكانت اليهود تعتقد أنها هي وحدها على الدين وكذلك العرب الجاهليون يعتقدون أنهم هم وحدهم على الدين، لأنهم قيدوا الدين بالأحزاب والشيع والجماعات المختلفة، ولكن الله سبحانه تعالى خطأ هذا التصور الديني وجاء بتصور الدين الصحيح في كتابه الحكيم وأمرنا باعتراف هذه الحقيقة بأن جميع الديانات لديها حق ويمكن لأصحابها النجاة والسعادة إن رجعوا إلى أصل الدين.

فكرة وحدة الدين:

عرض " أبو الكلام آزاد" وجهة نظره في الديانات المختلفة. وهي نظرية وحدة الدين". في تفسير الآية (اهدنا

الصراط المستقيم) وفي مواضع مختلفة في المجلد الثاني من تفسيره " ترجمان القرآن". والسطور التي كتبتها بعنوان " فلسفة الدين عند أبو الكلام آزاد" منقولة ومختصرة مما كتبه في تفسير هذه الآية. وبما أنه أطال البحث في هذه المسألة وأتى بنصوص قرآنية كثيرة لم أستطع أن أنقل البحث كله إلا أنه عرض خلاصة بحثه في نقاط عديدة جامعة وهي جديرة بالاهتمام. وأرى من المناسب أن أنقل تلك النقاط الأساسية التي هي خلاصة فكرته ومغزاها. وإني سأذكر أيضا بعض النصوص التي استشهد بها واستنبط منها فكرة وحدة الدين خلال عرضه البحث.

وتلك النقاط الأساسية كالتالي:

(١)[2]كان التصور الديني تصورا محدودا في إطار محدود عند نزول القرآن، كما يكون للأجيال والأسر والقبائل إطار محدود يحيط بها، كانت الديانة لها إطار محدود. أتباع كل حزب كانوا يظنون أنهم وحدهم على الحق ومن خرج عن نطاق حزبهم هو محروم عن النجاة والسعادة.

(٢) كانت حقيقة كل ديانة عند أتباعها تقاليدهم الظاهرة المألوفة وكل من تمسك بتلك الأعمال والتقاليد المألوفة أيقن أنه فاز بالنجاة والسعادة. مثلا: صور العبادة المتنوعة

وطرق تقديم الأضاحي وأكل نوع خاص من الأطعمة أو عدمه أو اختيار زي خاص من الأزياء أو عدمه.

(٣) بما أن أعمال وتقاليد ديانة كانت مختلفة لديانة أخرى، يظن أتباع كل ديانة أن أتباع ديانة أخرى ليس لديهم الحق أو الصدق.

ذكر[3] مولانا " أبو الكلام آزاد" في هذا الصدد رد فعل اليهود والنصارى على حكم تحويل القبلة فلما أمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يتوجه نحو الكعبة المشرفة عند كل صلاة بدل بيت المقدس، بدأ يصلي متجها نحو الكعبة، فثقل ذلك على اليهود والنصارى الذين كانوا يظنون أن الاتجاه إلى القبلة أو أشياء أخرى ظاهرة أصل الدين، ويفرقون بمثل هذه الأشياء بين الحق والباطل ولكن الله خطأ زعمهم وأمرهم بصرف الاهتمام عن مثل هذه الأعمال الظاهرة قائلا: (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات. أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير.) (٢: ١٤٨)

وبين لهم حقيقة الدين وأصله في الآية الآتية:

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى

المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة آتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) (٢:١٧٧)

كان يدعي أتباع كل ديانة أنهم هم وحدهم على الحق. وأن أتباع الديانات الأخرى على الباطل. ولم يكونوا يقتنعون بهذا الحد بل فرضوا على أنفسهم الدعوة إلى الخير الذي يظنونه خيرا ويروجون الكراهية والحقد للآخرين وكانت هذه الحالة فرضت على النوع البشري حروبا متصلة وكان كل حزب يكره ويريق دماء جزب مخالف.

وقد استنبط " أبو الكلام آزاد" هذه النقطة من آيات متعددة[4] منها: (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم. فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) (٢:١١٣)

ولكن القرآن عرض حقيقة الدين العالمية للنوع البشري كله. ويتجلى ذلك فيما يلي:

(الف) إنه لم يبين أن في كل ديانة حق فحسب بل أثبت واضحا جليا أن جميع الديانات حق وقال (أي القرآن): إن

الدين نعمة عامة ولذا لا يمكن أن يكون محصورة في جماعة واحدة من الناس ولا يكون فيها حق لجماعة أخرى.

(ب) وقال : قانون سعادة الإنسان الروحية كقوانينه الفطرية الأخرى. أي سعادة الإنسان الروحية يستحقها الجميع. ولكن أصحاب الديانات نسوا وحدة الدين وتفرقوا في أحزاب وشيع ونصبوا العدوان لكل حزب مخالف له.

(ج) وقال: كان الدين لرفع الخلافات والنزاعات بين النوع البشري ولم يكن ليدعو الناس إلى الفرقة والصراع. وما أضل شيء من أن يكون الذي جاء لإزالة الفرقة والاختلاف أساسا للخلاف والصراع؟

(د) وقال: الدين شيء والشرع والمنهاج شيء آخر. الدين واحد وأعطى كل ديانة هذا الدين ولكن الشرائع والمنهاج كانت مختلفة. وكان لا بد أن تكون الشرائع مختلفة لأن أحوال كل قوم وعصر كانت مختلفة وكان من الضروري أن تكون الأحكام والأعمال ملائمة لكل قوم وعصر. ولكن لا يمكن أن يكون أصل الدين مختلفا لاختلاف الشرائع والمنهاج. ونسيتم حقيقة الدين، ويكذب بعضكم بعضا بناء على اختلاف الشرائع والمنهاج.

وذكر قوله تعالي: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتكم فاستبقوا الخيرات).

يقول مولانا آزاد بعد ذكر هذه الآية: تفكروا في هذه الآية (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا). يقول الله جل شأنه: (إنه جعل لكل جماعة منكم شرعا ومنهاجا ولم يقل: جعلنا لكل جماعة منكم دينا. لأن الدين واحد للجميع لا يوجد فيه التعدد والتنوع ولكن الشرائع والمنهاج لا يمكن أن تكون واحدة للجميع. لا بد أن تكون مختلفة لكل عصر ومصر حسب اختلاف أحوالهم وظروفهم. فإذن اختلاف الديانات هو اختلاف في الفرع لا في الأصل[5].

(هـ) وقال: ليست النجاة على تحزبكم وتشيعكم ولا على التقاليد والمألوفات التي اتخذتموها دينا من عند أنفسكم. هذه العادات أو التقاليد لا تغني عنكم شيئا. خلقتم هذه الأحزاب والفرق بأيديكم من أن دين الله واحد. ما هو الدين الحقيقي؟ يقول : هو الإيمان والعمل الصالح.

(د) وقد أعلن بكل صراحة أن دعوته لا تعني إلا إثبات الديانات وأنها حق ولكن أتباعها ضلوا عن حقيقتها فإن رجعوا إلى حقيقتها برءت ذمتى وقبلوا دعوتي. حقيقة جميع الديانات واحدة ومشتركة يسميها القرآن " بالدين" و" الإسلام".

(ز) ما كان الدين ليكره إنسان إنسانا آخر بل الدين يدعو إلى أن يحب إنسان إنسانا آخر ويجتمع جميع الناس تحت لواء عبودية الله سبحانه وتعالى ـ وهو يقول : إذ الإله واحد وكل واحد منا يعبده ويجزي كل إنسان بما عمله من خير وشر فلماذا نقاتل ونصارع باسم الإله وباسم الدين؟

...... الديانات كلها حق ولكن جميع اتباع الديانات انحرفوا عن الحقيقة لأنهم ضيعوا حقيقة الدين ووحدته واخترعوا جماعات لضلالاتهم. فإن انتهوا عن ضلالتهم وعملوا بتعاليم دياناتهم الصادقة انتهت نزاعاتهم وجدا لهم وسيرى كل حزب أن لديه الحق الذي هو لدى جميع الأحزاب ويقول القرآن: الدين هو حقيقة متفق عليها وهو لجميع الديانات ويسمى إسلاما.

درس مهم مستفاد من فكرة وحدة الدين:

فقد اتضح لنا وجهة نظر " أبو الكلام آزاد" الدينية الشاملة في النقاط الستة التي بين فيها خلاصة البحث. إنه في الحقيقة أراد تقديم رسالة إنسانية عالمية عظيمة من خلال " فكرة وحدة الدين" وهي : احترام كافة الأديان والتسامح بين أتباعها والكف عن القتال والجدال والفتنة والفساد وترويج الحقد والكراهية بينهم. وأشار إلى ضرورة تعزيز الأواصر الأخوية والودية بين بني أدم بحيث يمكن لهم أن يعيشوا في أرض الله آمنين سالمين مطمئنين، لأنه إذا ثبت

أن إلهنا واحد والنوع البشري كله أمة واحدة وأرض الله واحدة ودينه واحد عام شامل لكافة البشرية وأرسل الله الأنبياء والرسل في كل عصر ومصر ليدعو إلى دينه الوحيد فماذا بقى لنا للخصام والجدال والقتال عليه؟ كلا ليس هناك شيء نقاتل عليه ونريق دماء بعضنا ببعض لأجله. فعلينا أتباع الديانات المختلفة من المسلمين والنصارى واليهود والهندوس والبوذيين والسيخ وغيرهم أن نرجع إلى تعاليم دياناتنا الأساسية ونستحق رحمة الله ولطفه وكرمه وندخل جنته بعبادته وحده. والجدير بالذكر أن هذه الفكرة أي فكرة وحدة الدين تدعم بشكل كبير " فكرة المجتمع متعدد الأديان" كالهند حيث يستطيع أتباع ديانات مختلفة أن يعيشوا في دولة واحدة أو بلد واحد عاملين على تعاليمها بدون خلاف أو صراع أو ظالم بشرط أن تكون الدولة دولة ديمقراطية تحتفظ بحقوق جميع الديانات وأتباعها. ولعل " أبو الكلام آزاد" قدم هذه الفكرة نظرا إلى الحقيقة التي بينتها بل أنا على يقين أنه قدم هذه الفكرة لصالح البلاد ومواطنيها من الهندوس والمسلمين والسيخ وغيرهم مدعما " فكرة المجتمع متعدد الأديان" والثقافات المركبة والقومية المتحدة ـ وعلى كل حال أن نظريته ثابتة من نص القرآن ونستطيع القول في ضوء هذه النظرية أن الهند مهد للديانات المختلفة.

التضامن بين الهندوس والمسلمين:

قد عرفنا وجهة نظر " أبو الكلام آزاد" الدينية أي نظرية وحدة الدين التي تعلم الناس احترام كافة الأديان وأصحابها. وعملا

بهذه الفكرة الصالحة قضى حياته كلها في توحيد صفوف الأمة الهندية. منذ أول يوم دخل فيه " أبو الكلام آزاد" في السياسة الوطنية جعل همه الوحيد الوحدة بين الهندوس والمسلمين والوحدة القومية لشن الحرب ضد الاستعمار. ويومئذ كان معظم المسلمين منعزلين عن السياسة الوطنية سيرا على توجيه مدرسة علي كره السياسية. فشق ذلك على " أبو الكلام آزاد"، فأصدر صحيفة "الهلال" سنة ١٩١٢م وبدأ يكتب فيها مقالات علمية وسياسية ملتهبة توقظ المسلمين من غفلتهم، وجمودهم وهروبهم عن واجباتهم ومسؤولياتهم. وكان " أبو الكلام آزاد" ناجحاً كل النجاح في إيقاظ المسلمين من سباتهم. صحيفة "الهلال" جعلت المسلمين يمزقون أستار الجمود والغفلة ويدخلون في المؤتمر الوطني الذي كان يقود حركة الاستقلال الوطنية. إنه لم يتوقع الاستقلال إلى بالوحدة والتضامن بين الهندوس والمسلمين وما كان يرى أي معنى للاستقلال إلا بها. منذ سنة ١٩١٢م إلى ١٩١٥م نشر في صحيفة الهلال مقالات نارية ملتهبة تحث المسلمين على الوحدة والتضامن بينهم وبين الهندوس وكانت الوحدة ضرورة قاسية لاستقلال الوطن من الاستعمار. فلما أحست الحكومة البريطانية بخطورة هذه الصحفية ودعوتها أصدرت حكم مصادرتها سنة ١٩١٥م وأخرج صاحبها عن البنغال ثم ألقى عليه القبض وأسجنه في معتقل رانشي في ولاية بهار سنة ١٩١٦م. وظل سجينا في معتقل رانشي إلى أواخر سنة ١٩١٩م فلما أطلق سراحه رأي حركة الخلاقة " تجمع المسلمين ضد الحكومة البريطانية. فاغتنم

الفرصة وبدأ يشارك حفلات حركة الخلافة وربما يرأسها. كانت حركة الخلافة حركة دينية إسلامية لصيانة الخلافة وما يتصل بأمر الخلافة من الحقوق والمسؤوليات ولكن "أبو الكلام آزاد" جعلها قضية وطنية وأيد فكرة " عدم الولاية" حيث استحالت حركة الخلافة إلى حركة وطنية وجمعت المؤتمر الوطني الذي كان معظم أعضاءه الهندوس، والمسلمين على رصيف واحد. وقد أثبت مولانا آزاد فكرة الوحدة بين الهندوس والمسلمين والأقوام والأخرى ضد قوم ظالم من نص القرآن وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وجعلها أمرا شرعيا واجبا على المسلمين. وهكذا حقق نجاحا باهرا في توحيد شمل الأمة الهندية وظل يهتف بأفكاره الصريحة المعلنة طول الحياة (وحدة الدين، والتضامن بين الهندوس والمسلمين والقومية المتحدة وتعزيز الأواصر الإنسانية بالحب والود والأخوة بين بني بشر) منذ بداية عهده بالسياسة الوطنية إلى أن توفى رحمه الله ـ ففي الصفحات الآتية نستعرض قضية الوحدة بين الهندوس والمسلمين في ضوء كتاباته وخطاباته.

الجهود التي بذلها في تحقيق الوحدة بين الهندوس والمسلمين:

إن نقول إن " أبو الكلام آزاد" قضى معظم حياته في إيجاد الوحدة بين الهندوس والمسلمين لا نبالغ في القول لتحقيق هذه الهدف النبيل دخل في السياسة الوطنية سنة ١٩٠٥م السنة التي

قسم فيها اللورد كرزن " ولاية بنغال" إلى قسمين لإخماد الحركة الوطنية ـ التي بدأت تتكون في البنغاليين. ولتوسيع الخليج بين الهنادك والمسلمين. فأحس أزاد بالخطر الداهم وشارك في المنظمات الهندوسية الإرهابية إعلاما للمسلمين بأن قد حان الوقت لخوض المعركة ضد الاستعمار وفي سنة ١٩١٢م أصدر مجلة "الهلال" التي كانت من أهدافها المهمة.

(١)إيقاظ المسلمين من سباتهم وغفلتهم وواجباتهم نحو دينهم ووطنهم.

(٢) الدعوة إلى الدخول في السياسة الوطنية كأخوانهم الهنادك جنبا إلى جنب.

(٣) إصلاح دينهم عن طريق العودة إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٤) الدعوة إلى الاتحاد بين الهندوس والمسلمين لإنقاذ وطنهم من براثن الاستعمار[6].

فكتب " أبو الكلام آزاد" يحث المسلمين على الدخول في السياسة الوطنية وعلى الاتحاد بينهم وبين الهندوس:" مضى كثير من ليالي الغفلة والتنعم! استيقظوا من سباتكم وانظروا إلى الشمس كم ارتفعت؟ وكم قطع إخوانكم من مسافة السفر؟ وكم تخلفتم عنهم

(أي الهندوس) اليوم؟ لا تنسوا أنكم لستم إلا مسلمين للإسلام عليكم حقوق وواجبات يتطلبها منكم اليوم. إلى متى تسيئون إلى دين الله بأعمالكم؟ ومتى يؤدي الإسلام دوره في الهند؟

احفظوا في أذهانكم! جهود الهنادك في سبيل استقلال الوطن تعد من الحب الوطني ولكن بالنسبة إليكم هذا واجب ديني وداخل في حكم الجهاد في سبيل الله جعلكم الله مجاهدين في سبيله. ويدخل في معنى الجهاد كل عمل أو سعي بذل في سبيل الحق، لإزالة الظلم والاستبداد، وعبودية الناس لأناس آخرين. هم مجاهدون الذين يبذلون جهودهم اليوم في سبيل استقلال الوطن وهم يريدون ذلك الجهاد الذي كان عليكم واجبا أن تبدؤوا به قبل كل شيء. قوموا للجهاد. يريد بكم الله أن تقوموا للجهاد وأن يقوم كل مسلم في كل بقعة من بقاع العالم لهذه الفريضة. استيقظوا وأحيوا فريضة الجهاد التي نسيتموها. لم تفعلوا شيئا في الهند إلى الآن. الله يريد بكم أن تفعلوا في الهند كل شيء يجب عليكم أن تفعلوه في كل مكان.[7] (جاهدوا في الله حق جهاده ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون إن شر الدواب عند الله . . . الخ).

خطابه في حفلة حركة الخلافة في آكره سنة ١٩٢١م:

لو تأملنا في هذا الخطاب الذي ألقاه في حفلة حركة الخلافة سنة ١٩٢١م في آكره لوجدناه يبين نجاح هذه الحركة في جمع

الهندوس والمسلمين على رصيف واحد ضد الحكومة البريطانية. وجدناه يمدح مهاتما غاندي وزعماء المؤتمر الوطني الذين شاركوا في هذه الحركة ورفعوا أصواتهم مطالبين حقوق المسلمين في الممالك الإسلامية والكف عن انتهاك حرمة الخلافة وحفظ مقدساتهم. وجدنا فيه مدى حرصه على التضامن بين الهندوس والمسلمين حيث يأتي بآية من القرآن الكريم ويستنبط منها أن الحكومة البريطانية فريق محارب للمسلمين وأن الله تعالى لا يمنعهم من أن يتحدوا مع الكفار الذين لم يعتدوا عليهم ولا يريدون حربا معهم أو الاستيلاء عليهم. ثم يحث المسلمين في ضوء هذه الآية على أن يتحدوا مع الهندوس ويكونوا يدا واحدة ضد الحكومة البريطانية كما استدل بعمل الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا حيث جمع عليه الصلاة والسلام القبائل المجاورة للمدينة المنورة ضد قريش وقال: نحن أمة واحدة. هكذا جعل مولانا آزاد هذه الوحدة أمرا شرعيا. ووجدناه يذكر المسلمين بالعهد الذي كان يصدر فيه صحيفة " الهلال" ويقول لهم : إن الهدف الأصيل وراء إصدار هذه الصحيفة كان جمع المسلمين والهندوس على رصيف واحد ويوم دعوتهم إلى الوحدة والتضامن دعوتهم في ضوء هذه الآية وفي ضوء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ففي الصفحات الآتية أنقل بعض الفقرات التي تدل دلالة واضحة على طموحاته وتمنياته التي كان ينظر إليها للوطن العزيز:

يقول " أبو الكلام أزاد": " الاتحاد ضروري وأكيد لنجاة الهند، ولأداء واجبات ومسؤوليات المسلمين تجاه وطنهم. هذه عقيدتي أعربت عنها سنة ١٩١٢م في العدد الأول لصحيفة "الهلال" وأرجو أن هناك رجال لم ينسوا " الهلال" إلى اليوم. ما هو الهدف الأساسي الذي وجهت إليه أنظار الناس في العدد الأول لصحيفة الهلال؟ أقول اليوم مفتخرا : إنه كان دعوة إلى الوحدة بين الهندوس والمسلمين. عينت لهم يومئذ الفريق المحارب في ضوء الأحكام الشرعية الذي كان يتحدى آسيا والشرق بل العالم كله. فكان ذلك الفريق الحكومة البريطانية. لذا يجب على المسلمين أن يتحدوا مع الهندوس بصدق وإخلاص ويصبحوا أمة واحدة في ضوء الأحكام الشرعية وأسوة النبي صلى الله عليه وسلم التي خلفها لنا عملا وحكما. وقد قلت لهم يومئذ أن يتحد ٧٠٠٠٠٠٠٠ مسلم مع ٢٢٠٠٠٠٠٠٠ هندوس على صف واحد ويصبحوا أمة واحدة. الآن أريد أن أسمعكم كلام رسول الله بعد كلام الله (يريد ذلك آية سورة الممتحنة) الذي قاله عندما كتب العهد بين المسلمين والقبائل المجاورة للمدينة المنورة من اليهود والنصارى والمشركين وقال : " إنه أمة واحدة". أي أننا نصالح ونتحد مع هذه القبائل ونحن أمة واحدة ضد قريش. عندما دعوت المسلمين إلى الاتحاد ليؤودوا فرائضهم وواجباتهم دعوتهم في ضوء هذه الكلمة. أي "إنه أمة واحدة". الأسبادب التي توجب علينا أن نكون أمة واحدة أكثر بكثير من الأسباب التي دعت محمدا صلى الله عليه

وسلم إلى المصالحة مع القبائل المختلفة ضد قريش. فلو كانت قريش ـ الفئة القليلة ـ تهدد الإسلام والمسلمين في عهد رسول الله، اليوم يهدد الإسلام والمسلمين ثلثي سكان العالم من أقوام مختلفة. فلو كان الرسول صلى الله عليه وسلم دعا القبائل المختلفة ضد فئة قليلة من قريش وضد أبي سفيان، ألا يجب على مسلمي الهند أن يتحدوا مع ٢٢٠٠٠٠٠٠ هندوس ويكونوا يدا واحدة وأمة واحدة ضد هذه القوة الهائلة (الاستعمار البريطاني) وتكبرها وتجبرها وضراءها التي تهدد الشرق كله وحرية الأقوام الشرقية[8]"؟

نستطيع أن نشعر من خلال السطور المذكورة مدى حرصه على الوحدة بين الهندوس والمسلمين ضد الحكومة البريطانية الغاشمة ولتحرير الوطن من براثنها وليجعل الهند خالصا للأمة الهندية.

خطابه الرئيسي في جلسة المؤتمر الوطني الهندي في دلهي ١٥ ديسيمبر عام ١٩٢٣م:

لما انتخب " أبو الكلام آزاد" رئيسا للمؤتمر الوطني عام ١٩٢٣م و ألقى بتلك المناسبة خطابا طويلا استعرض فيه الإنجازات التي حققها المؤتمر الوطني وما عليه من المسؤوليات والواجبات والبرامج المختلفة وتحقيقها في أيام مقبلة. وفي النهاية

نبه القوم إلى خطورة الخلاف والشقاق بين أفراد الأمة ومدى ضرورة الوحدة والتضامن في سبيل استقلال الوطن من قبضة الحكومة البريطانية الغاشمة. ففي الصفحات الآتية أنقل بعض الفقرات في شأن الوحدة والتضامن بين الهندوس والمسلمين.

فيقول: " أشير إلى الاتحاد بين الهندوس والمسلمين. الاتحاد هو الأساس الأول للبناء. لا نستطيع أن نظفر بالاستقلال ولا يمكن للهند أن تتوفر لديها وسائل النهضة والرقى إلا بهذا الأساس. لا يمكن أن نحصل على الحرية الوطنية فحسب بل لا نحصل على المبادئ الإنسانية الأول إلا بهذا الأساس. إن نزل اليوم ملك من المساء وأعلن من منارة قطب الدين أيبك بأن يعطي للهند الحكم الذاتي إن تخلت الهند عن إيجاد الوحدة والتضامن بين الهندوس والمسلمين أتخلف عن الحكم الذاتي ولكن لن أتخلف من إيجاد الوحدة بينهم. لأن الحكم الذاتي إن أجل عن الميعاد تخسر الهند وحدها ولكن لو ذهب اتحادنا إدراج الرياح تخسر الإنسانية كلها[9]".

ويقول : " في الوضع الراهن نجد نشاطات " حركة شدهي" (وهي حركة هندوسية تحاول

لإرجاع المسلمين إلى الهندوسية) مكان حركة الخلافة وحركة الحكم الذاتي. يرفع الهتاف بأن أنقذوا الهندوس من المسلمين في مكان ونسمع صيحة تدعو المسلمين إلى أن حافظوا على الإسلام وأنقذوه من هجمات الهندوس في مكان آخر. فإن ترفع هذه الهتافات باسم الإسلام والهندوسية، من يرفع الهتاف لاستقلال الهند المسكينة؟

الحفلات العامة والجرائد والصحف تروج العصبيات الطائفية بين عامة الناس في جانب وعامة الناس المضللة تريق دماء طاهرة في جانب آخر. فمن يقدر النتائج لهذه الاشتباكات والاضطربات التي حدثت في أجمير، وميرت وسهارن فور وأكرا وأماكن أخرى كثيرة؟

أيها الحفل الكريم: أخاطب أولئك الناس الذين يروجون هذه العواطف، وأقول لهم بكل صراحة ووضوح إن هذا الوضع لا يطاق. نحن نقدم خطواتنا نحو طريق الاستقلال وأنتم تمنعوننا عن سيرنا؟ فإن تمنعوننا عن سيرنا يجب علينا أن نزيل عقبات الطريق. أنا التمس من سادة السامعين الذين جاءوا من مختلف أنحاء الهند: إن لم

تستطيعوا أن تتخذوا قراراً حاسماً في شأن المشاركة في المجالس اللاتعاونية أو عدم مشاركتها فلا حرج عليكم ولا أسف، ولكن اجتمعوا على إنهاء الاضطرابات الطائفية[10]".

ويقول:

" ... قبل مدة من الزمن مضت، ما كان المسلمون يشاركون في سياسة المؤتمر الوطني بحيث أنهم قوم مستقل بالذات. وكانت هذه الفكرة سائدة على عقولهم بأنهم أقل بكثير من الهندوس ومتخلفون عنهم علما وثروة. فإن شاركوا في حركة سياسية مشتركة ذابت شخصيتهم وزالت. وبناء على هذه الفكرة كانت لهم سياسة الانعزال عن الحركة المتحدة. ولكنكم قد شاهدتم تغير سياستهم عبر السنوات الممتدة إلى اثنتي عشرة سنة منذ أصدرت صحيفة " الهلال" التي كانت تخالف مثل هذه السياسة. قلت يومئذ لأخواني في الدين: إنهم يعرقلون في سبيل استقلال الوطن باتخاذهم سياسة الاعتزال. يجب عليهم أن يثقوا بإخوانهم الهندوس وأن يشاركوا في المؤتمر الوطني وأن يجعلوا استقلال الوطن نصب أعينهم

ويتخلفوا عن المنظمات الطائفية. فكانت دعوتي إلى تغيير سياستهم شاقة عليهم وخالفوني بكل قوة ولكن الحقيقة تجلت لعيونهم بعد قليل وسمعت أنهم كانوا يدخلون في المؤتمر الوطني جماعات وفرادى وكنت يومئذ سجينا في معتقل رانشي سنة ١٩١٢م[١١]".

ثم يقول : " كما رفعت صوت الحق ضد أخوتي في الدين خلافا لمسلكهم في سنة ١٩١٢م و لم يمنعني خوف مخالفتهم عن أن أبوح بالحق كذلك اليوم يجب علي أن أرفع صوتي ضد أولئك الأخوة الذين يقودون " حركة شدهي" وأعلن بكل صراحة أن الهند لا تحتاج إلى أي حزب إسلامي أو هندوسي بل تحتاج إلى حزب واحد وهو المؤتمر الوطني الهندي[12] (Indian National Congress)

وينادي القوم قائما على رصيف القومية المتحدة:

" ... أخاطبكم اليوم وأنا قائم على رصيف القومية المتحدة والتمس من جميع الهندوس والمسلمين باسم الوطن ألا يجرحوا آمال الهند وأحلامها بلا رحمة ولا هوادة وبدون أي

استعراض لما سبق انتهوا عن جميع النشاطات المتعلقة بحركة شدهي والمنظمات الطائفية الأخرى[13]".

نقلت لقراء الكرام فقرات طويلة عديدة من خطابه لكي يطلعوا على جهوده المخلصة في إنقاذ الوطن من أيدي الظالمين عن طريق الوحدة بين الهندوس والمسلمين والسيخ والبوذيين وغيرها من أتباع الديانات. كان في جوفه قلب كبير وكان له أحلام وآمال طوال في بناء الهند الجديدة حيث يتمكن لجميع أتباع الديانات أن يعيشوا فيها متحابين ومتعاضدين ومتماسكين كالأخوة من أب واحد وأم واحدة. ألا نستطيع أن نقول : إن الهند مهد للديانات في ضوء هذه الجهود والتضحيات التي بذلها " أبو الكلام آزاد"؟

الهند مهد للديانات:

مما لا شك فيه أن الهند مهد للديانات وهي أرض الأوثان والأصنام والآلهة، وأرض سلالات إنسانية مختلفة وأرض لغات وحضارات مختلفة ولكن هل كتب " أبو الكلام آزاد" مجلدات ضخمة من تاريخ تلك الديانات وأتباعها والحضارات البائدة؟

كلا! إنه لم يكتب هكذا. ولكنه قال أو قل كتب في أسلوبه البليغ الفصيح العميق الدقيق: أن الهند مهد للديانات، أنها كانت مهدا للديانات في الماضي وهي الآن أيضا مهد لها وستبقى في المستقبل أيضا مهدها. لأن الله تعالى أراد أن تكون الهند غاية للديانات- لا يمكن أن يدعي أتباع ديانة خاصة بأن الهند أرضهم وحدهم. مثلا : إن أدعي الهندوس أن الهند أرضهم وحدهم، أخطئوا وكذلك إن أدعي المسلمون أنها أرضهم وحدهم أخطئوا بل الحق أن الهند للجميع من الهندوس والمسلمين والسيخ والبوذيين والنصارى أيضا- هكذا قال : " أبو الكلام أزاد". نعم هكذا قال. لذلك نجده يخطئ سياسة المسلمين طول الحياة. أي سياسة الانعزال أولا ثم مطالبة دولة مستقلة باسم الدين والعقيدة مخافة أن تكون الهند للهندوس وحدهم. ولكن آزاد رحمه الله شجعهم دائماً وعطف عليهم ورفق بهم دائما وبصرهم طريق الرشد والنجاة دائما. قال لهم مرة : " لله، أخرجوا من نفوسكم خوف الأكثرية الهندوسية، هذا أكبر وسوسة شيطانية ألقيت في قلوب المسلمين"[14].

وقال يخاطب جماعة من المسلمين الذين كانوا يهربون إلى باكستان عام ١٩٤٧م: " قبل مدة قليلة مضت قلت لكم إن نظرية القوميتين أخطر من الموت، إنها تقتل نفوسكم، أتركوها[15].... ...".

هكـذا نجـده دائمـا يعامـل مـع المسـلمين كـالأب الشـفيق العطـوف. ولكنهم أنكـروه وجفـوا بـه وهـربوا إلـى باكستان مخافـة الهندوس مع أن الهند ليست للهندوس وحدهم.

هاهنا إعـلان الصـريح أن الهند مهد للديانات. فاقرأ معـى السطور التالية بإمعان النظر وحضور القلب.

يقول مولانا آزاد:

" أنـا مسلم واعتز بأنـي مسلم ـ لدي إرث التقاليد (المعتقدات) الفاخرة القيمة المحيطة لثلاثة عشـر قرنـا ـ لا أحب أن يضـيع منها شـيء. تعاليم الإسـلام وتاريخه وعلومه وفنونه وحضاراته كلها تراثـي وغنائي. وحق علي واجب أن أحافظ عليها. وبكونـي مسلما، لـي كيان مستقل دينـا وثقافـة. لا أطيق أن يتدخل أحد في شـأني هذا. ولكن مع هذه المشـاعر (العواطـف) في شعور آخر خلقه تجارب حياتـي والإسـلام لا يكره ذلك بل يساعدني في شأنه وهو أنـي هندي واعتز بأنـي هندي. وأنـا جزء لا يتجزأ من القومية المتحدة الهندية. أنـا تلك اللبنة للقومية المتحدة الهندية التي لا يكمل سرح العظمة إلا بها. أنـا عامل مهم لتكوينها ولا أتخلف أبدا عن

ذلك الحق (عن الإسهام في بناء القومية المتحدة الهندية).

قد قدر لأرض الهند في المقادير أن تكون غاية لقوافل الأجيال البشرية المختلفة والحضارات المختلفة والديانات المختلفة. ولم يكد يطلع فجر التاريخ حتى بدأت القوافل ترد أرضها. وكانت لم تزل ترحل إليها وضمت الهند القوافل كلها إلى أحضانها. وكان من إحدى تلك المواكب موكبنا ـ موكب المسلمين ـ وكان موكبا أخيراً اتبع خطوات المواكب السابقة وسارت على آثار طرقها واتخذ أرض الهند مقرا له للأبد. كان ذلك الزمن زمن اجتماع الأقوام المختلفة والحضارات المختلفة. كانت تلك الأقوام تسير على طرق مختلفة وإلى جهات مختلفة كما كان "جنجا" و" يمنا" يجريان إلى جهتين مختلفتين ولكنهما اجتمعا في مكان بمشيئة الله تعالى كذلك اتحدت الأقوام المختلفة على طريق واحد أو على رصيف واحد. ويوم حدث هذا الحادث التاريخي العظيم بدأت أيدي الفطرة بناء هند جديدة مكان هند قديمة.

جئنا (المسلمون) بثروات وكانت هذه الأرض مملوءة بثروات من قبل فوهبناها ثرواتنا وفتحت هي أبواب خزائن ثرواتها ولكننا أعطيناها أثمن شيء من كنوزنا الذي كان الهند أحوج إليه من كل شيء. علمناها الديمقراطية والمساواة الإنسانية. وقد انقضى أحد عشر قرناً على هذا الحادث (ورود المسلمين إلى الهند) وأصبح الإسلام يطالب بملكية هذه الأرض كالهندوس. لو كانت الديانة الهندوسية ديانة ساكنيها آلافاً من السنين فقد أصبح الإسلام دينها منذ ألف سنة. كما يستطيع هندوسي أن يقول مفتخراً: أنا هندي ومتبع للديانة الهندوسية كذلك يستطيع مسلم أن يقول مفتخراً: أنا هندي ومتبع الإسلام، بل أنا أستطيع أن أوسع هذا النطاق وأرضي بحق النصراني أيضاً أن يقول: أنا هندي وأتبع المسيحية التي هي من إحدى ديانات الهند.

تاريخنا المشترك المحيط بأحد عشر قرناً قد أثر في الحياة الهندية وجعلها حافلة بوسائل البناء والرقي. لغاتنا وأشعارنا وآدابنا وأساليب حياتنا وأذواقنا وملابسنا وعاداتنا وتقاليدنا وحقائق

الحياة الأخرى لم تسلم إلا وقد أثر فيها الحياة
المشترك وتركت عليها طابعاً خاصاً.

كانت لنا لغات شتى، مختلفة ومتنوعة ولكن أصبحنا ننطق بلغة واحدة وكانت عاداتنا وتقاليدنا مختلفة عن الآخرين ولكننا صبغناها صبغة واحدة نستطيع أن نرى ملابسنا القديمة في الصور القديمة (المعلقة بالجدران) ولكنها لم تعد صالحة لأجسامنا اليوم. هذه الثروة المشتركة نعمة للقومية المركبة. لا نعود إلى الماضي تاركين هذه الحياة الجديدة المشتركة إذ لم نكن نبدأ فيه بهذه الحياة الطريفة.

إن يريد بعض الهندوس أن يستعيدوا الحياة الهندوسية أقدم من ألف سنة فليعلموا: إنهم يحلمون ولن يتحقق لهم هذا الحلم أبداً. كذلك لو أراد بعض المسلمين إحياء حياتهم وحضاراتهم القديمة التي جاءوا بها من إيران وآسيا الوسطى فأنصحهم أن ينتبهوا من أحلامهم في أقرب فرصة ممكنة لأن هذه الدعاوى أو التمنيات غير طبيعية. حياتنا المشتركة خلقت قالباً للقومية المتحدة لا نستطيع أن نخلقه بأيدينا بل يتكون بنفسه في عشرات القرون ويكون وراءه أيدي الفطرة.

فقد تكون قالب القومية المتحدة وأثبت عليه القدر خاتمه. نقبل أو لا نقبل أصبحنا أمة هندية واحدة لا يمكن الفصل بين

عناصرها وأجزاءها لا تستطيع أية فكرة أو أيدلوجية أن تشتت هذه القومية المركبة. فيجب علينا أن نرضي بقضاء الله وقدره وأن نتقدم إلى الأمام لتطوير هذه الحياة الجديدة"[16].

أظن أن القارئ يصدقني فيما قلت أن " أبو الكلام آزاد" رحمه الله قال: إن الهند مهد للديانات بعد قراءة السطور المنقولة أعلاها. ولا أحتاج إلى مزيد من الشرح والإيضاح غير أني وضعت خطوطا متصلة تحت السطور التي تثبت الدعوى أن الهند مهد للديانات وهي للهندوس والمسلمين والسيخ والبوذيين والنصارى وغيرهم وهم أمة هندية واحده.

الديانات التي ذكرها أبو الكلام آزاد في بعض كتبه:

قلت في بداية هذه المقالة: إني سأذكر تلك الديانات التي ذكرها أبو الكلام آزاد في بعض كتبه. وذلك نظرا إلى ظاهرا الموضوع، لأنه في الحقيقة لا يتطلب من الباحث أن يستعرض الديانات التي نشأت في الهند وتطورت بل يتطلب منه أشياء أخرى ظهرت بعد قراءة مجموعة من كتب مولانا آزاد وخطاباته. ولذلك. يضيق بي المجال أن أذكر تلك الديانات بالتفصيل ولكنه لا بد من الإشارة إليها.

ذكر " أبو الكلام آزاد" تصور الإله وتصور الصفات الإلهية في الديانات ما قبل الإسلام. تحدث عن تصور الإله في اليهودية والنصرانية والزردشتيه والمجوسية وفي الديانة البرهمنية (الهندوسية) والبوذية وغيرها. وقال في ضوء الوثائق الدينية القديمة أن الديانات كلها كانت على عقيدة التوحيد. ودعت كل واحدة منها إلى عبادة الله وحده ولكنها تعرضت للشرك والخرافات لما دعت إليها العوامل والأحوال. يتحدث مولانا آزاد عن ديانة حضارة مهنجودارو (من إحدى الحضارات البائدة في الهند). ويقول : أن ديانتهم كانت ديانة التوحيد وكانوا يعبدون إلها واحدا. إنه كتب: " آثار مهنجودارو في الهند تذهب بنا إلى الأزمان البعيدة قبل ورود الآريين ولم تتم البحوث والتحقيقات للأولئك الناس إلى يومنا هذا ولكن قد ظهرت حقيقة كبرى بأن عقيدة أولئك السكان القدماء كانت عقيدة التوحيد وما كانت عقيد وثنية. وكانوا يدعون إلههم الوحيد باسم " أون" (OUN) الذي يشبه بكلمة سنسكريتية "أندوان" (Undwan) كان نفور ذلك الوجود شاملا للجميع وكانت مظاهر القوى تابعة لقوانينه وكانت صفته "ويدوكن" يعني الذي لا تغفل عينه قط ولا تأخذه سنة ولا نوم.[17]

خلاصة القول أن جميع الديانات كانت على حق ولكن دخل فيها الباطل والشك والخرافات فيما بعد من الأزمان. وكانت لرفع الخلافات والصراعات والظلم والاستبداد ولتعلم الناس الأخوة

العالمية والمحبة واللين والرفق بالإنسان والإنسانية ولكن الناس نسوا حقيقة الدين.

الخاتمة:

جل ما كتبت في هذه المقالة كان فرضاً افترضته على فكرة وحدة الدين. ولما تأملت مليا في شمولية هذه الفكرة تجلت لي معاني جديدة وانكشفت لي جوانب مجهولة عن الموضوع. ووجدت أفكار ومعتقدات " أبو الكلام آزاد" تعتمد كثيراً على هذه العقيدة الراسخة.

لذا أعيد قولي مرة ثانية: أن موضوعنا يدور حول هذه الفكرة الأساسية التى تعلن كالنذير العُريان: يا أهل الهند! إن الهند مهد للديانات والحضارات وهي تفتخر بها.

المراجع:

[١] - ترجمان القرآن، المجلد الأول، تفسير الفاتحة، ص:٢٤٨-٢٤٧ (ملخص)

[٢] - ذكر جميع النقاط الأساسية في المجلد الأول من تفسيره ترجمان القرآن من ص: ٣٣٥ إلى ص:٤٠٠

[٣] - المصدر السابق،ص: ٣٦٨-٣٧٠.

[٤] - المصدر السابق، ص: ٣٧٦

[٥] - المصدر السابق، ص: ٣٧٥

---

[6] ـ نقلت هذه الأهداف ملخصا من كتاب " مضامين أبو الكلام آزاد" الجزء الثاني ـ من عنوان "الهدف السياسي لصحيفة الهلال" كتب ٨ سبتمبر ١٩١٢م.

[7] ـ مضامين أبو الكلام آزاد الجزء الثاني، ص: ١٣٢-١٣٣ تحت عنوان " الجهاد في سبيل الحرية" ونشر سنة ١٩١٢م ١٨ ديسيمبر في صحيفة " الهلال".

[8] ـ خطابات أبو الكلام آزاد، ص: ٥٠-٥١ رتبها مالك رام ـ طبعها ساهتيه إكاديمى.

[9] ـ المصدر السابق، ص: ٢٠٥

[10] ـ المصدر السابق، ص: ٢٠٥-٢٠٦

[11] ـ المصدر السابق، ص: ٢٠٦-٢٠٧

[12] ـ المصدر السابق، ص: ٢٠٧

[13] ـ المصدر السابق، ص: ٢٠٩-٢١٠

[14] ـ مضامين أبو الكلام آزاد ـ تحت عنوان ـ الجهاد في سبيل الحرية، ص: ١٢٤

[15] ـ خطابات آزاد،ص: ٣٣٨

[16] ـ مقتبس من خطابه الرئيسي في حفلة المؤتمر الوطني الهندي التي عقدت فى مارس عام ١٩٤٠م فى رام كره، ص: ٢٩٨-٣٠٠، خطابات آزاد، إعداد: مالك رام.

[17] ـ ترجمان القرآن. تفسير سورة الفاتحة، ص:٢٤٦

المراجع والمصادر:

(١) أبو الكلام آزاد: ترجمان القرآن (المجلد الأول والمجلد الثاني)، ساهتيه أكاديمي، نيودلهي، ١٩٦٦

(٢) أبو الكلام آزاد: خطبات آزاد (إعداد: مالك رام)، ساهتية أكاديمي، ١٩٧٤م.

(٣) أبو الكلام آزاد: تحريك آزادي، اعتقاد ببلشنك هاؤس، ١٩٨٨م

(٤) أبو الكلام آزاد: انتخاب الهلال، اعتقاد ببلشنك هاؤس، ١٩٨٧م

(٥) أبو الكلام آزاد: قول فيصل، اعتفاد ببلشنك هاؤس، ١٩٨٧م.

(٦) أبو الكلام آزاد: نكارشات آزاد، مقبول أكاديمي، لاهور.

(٧) أبو الكلام آزاد: تذكرة

(٨) بدر الحسن (B.A.)، مضامين أبو الكلام آزاد، هندوستاني ببلشنك هاؤس، دلهي.

(٩) محمود الحسن الصديقي، مضامين البلاغ، هندوستاني ببلشنك هاؤس، دلهي.

(١٠) مولانا أخلاق حسين قاسمي: ترجمان القرآن كا تحقيقي مطالعة، مولانا آزاد أكاديمي، ١٩٩٣م.



الهند كمهد للديانات في ضوء كتابات مولانا أبو الكلام آزاد

ـ عرفان أحمد الندوي

الهند مجمع الأديان:

إن الهند دولة قديمة توجد فيها أديان متنوعة ومذاهب مختلفة من الإسلام واليهودية والنصرانية والبوذية والجينية والبرهيمة والزرادشتية والسيخ وغير ذلك وبأية بقعة من العالم ظهرت الحضارة الإنسانية فتعتبر الهند أحداها، ولا نجد أمثال الآريين عن رواية الملل جملة مفصلة طبقا للأبحاث الحاضرة.

ومما لا ريب فيه أن الهند كانت قاعة المعمل الاختبارية منذ زمن قديم لأمثال مختلفة جذابة وأفكار فكرية نادرة، ولها إسهام كبير لامع في الحضارة التاريخية وهي بلدة سعيدة تحتل مكانة بارزة لاجتماع العناصر والمتفاوتة الإفادة والاستفادة، الأخذ والقبول، التعاطي والتعامل، ولقد دب وتسلل في بيئتها

الخالصة التفكير والتدبر الفلسفي والبحوث العملية وسكانها ما رضوا على الحياة المادية والدنية بل حاولوا لمستقبل جديد لامع وتكشف هذه الحقيقة عند ما نرى الاجتماع لملل متفاوته في العالم كله من وسط آسيا وغربها والأفريقية الشمالية وأوربا ما اتخذت محاولة الملل والبحوث بها أمثال مستقلة بل أمثال الهند الفكرية والتجربة الملية تضم في التاريخ القديم قبل الآريين، وهناك إمكانات قوية أن أفكار الأديان الروحانية الرقية كانت موجودة في الهند قبل رواج الديانة البرهمية مع دخول الآريين.[1]

وإنما اختلف اعتقاد الخاص والعام في كل أمة بسبب أن الطبائع الخاصة تنازع المعقول ويقصد التحقيق في الأصول، والطبائع العامة تقف عند المحسوس وتقتنع بالفروع وتروم التدقيق وخاصة في ما افننت فيه الآراء ولم يتفق عليه الأهواء.[2]

وعند ما نطالع أوراق التاريخ الإنساني لأفكارها الإلهية والربانية في أزمنة متفاوتة فنرى طرق إزدهارها عجيبة حيث لا يفيد الأصول العامة للتعليل وكل شيء ما خلق الله يرتقي يوما فيوما كما أن جسد الإنسان ينشأ تدريجيا فكذلك الأذهان الإنسانية تتطور من الأسفل إلى العليا، ولكن ما يتعلق من

تصور ذات الإله فتظهر المسئلة عكسها ويعمل هناك أصول التخلف بدلا من الازدهار والرقي.[3] وقد سادت نظرية التوحيد على أذهان البشرية في الظلام القديم أعني أن هناك إله خالق كل شيء في الكون الذي يشاهده الإنسان من الجمادات والحيوانات، الصغير والكبير، الشاهد والغائب ولكن يعلم بعد ذلك أن اتخذت وانبعثت في الجمعية الإنسانية أفكار تعدد الإلهة والأوثان بدلا من التوحيد الخالص.

وعندما صفحنا أوراق تاريخ الهند القديمة أن حضارة الهند وثقافتها معروفة جدا فيما بين الناس حتى في خارج الهند أيضا وكم من عقيدة وديانة ظهرت في الهند ولكن ازدهرت وتطورت خارج البلاد وكان الناس يشتغلون في العبادة حسب عقائدهم وطقوسهم ويؤدون الإخاء والمودة فيما بينهم بدون اختلاف الألوان والملل ويساهمون أعياد ومهرجانات بعضهم بعضا.

وكانت الهند منقسمة في ولايات مختلفة يسودها ملوك ونوابون وما كانت منتظمة في سلك واحد حتى دخل المسلمون بعضهم دخلوا " السند" فقط وبعضهم أوغلوا الولايات المختلفة وبعضهم وسعوا نطاق حكوماتهم إلى أماكن بعيدة ثم جاء المغول فاستوطنوا الهند ووسعوا حدود الهند إلى كابل وبرما وحيدرآباد وإلى أقصاء الصين ومازالوا يجاهدون في ترفيه

البلاد وسكانها حتى صارت الهند تقال " طير الذهب" كما يقول سماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي:

" دخل المسلمون الهند كدعاة مرشدين أو غزاة مجاهدين أن ملوك فاتحين أو علماء محققين من خيرات وحسنات وتحف وطرف وعن بعض ما أضافوه إلى ثروتها الدينية والعلمية والخلقية والاجتماعية والصناعية والمدنية في عهدهم الطويل فكانوا ينظرون إلى الهند كوطن ومدفن ومسكن لا يبغون عنها حولا، فكانوا يخدمونها بكل ما أوتوه من ذكاء ونبوغ وقوي ومواهب وكانوا يعتقدون أن كل ما يضيفونها إلى ثروتها إنما يضيفونه إلى ثروتهم ويحسنون إلى أنفسهم فكان نظرهم إلى البلاد يختلف بطبيعة الحال عن نظر الأوروبيين المستعمرين الذين يجلبون خيراتها إلى بلادهم الخاصة ويحلبون البلاد كبقرة مستعارة لا تقيم عندهم، وأما في الاجتماع فكان اعجب ما حمله المسلمون معهم هي المساواة الإنسانية التي لم يكن للهند عهد بها، فلا نظام طبقات، ولا منبوذ،

ولا نجس بالولادة، ولا جاهل يحرم التعليم ولا تقسيم أيد للحرف والصناعات، يعيشون معا وياكلون جميعا ويتعلمون سواء وليس هناك أي تدخل من الحكومة إلا ما كانت تتعلق من التقليد الوحشي كإحراق المرأة أنفسهن بالنار على وفاة أزواجهن وخاصة إصلاح تقليد ما يسمى بـ"ستي"[4].

وقد قرر هذه الحقيقة جواهر لال نهرو رئيس الوزراء الهندي سابقاً إذ قال:

" إن دخول الغزاة الذين جاءوا من شمال غرب الهند ودخول الإسلام له أهمية كبيرة فى تاريخ الهند، إنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي، إنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ وحب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند، إن نظرية الإخوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ويعيشون فيها أثرت أذهان الهندوس تأثيرا عميقا، وكان أكثر خضوعا لهذا التأثير البؤساء الذي حرم عليهم المجتمع الهندي المساواة، والتمتع بالحقوق الإنسانية"[5].

خدمات آزاد في تحرير البلاد وتوحيد صفوف المسلمين والهنادك:

... رجالا شهد لهم علماء العرب بالفضل ... في كتبهم ومؤلفاتهم ويفتخرون بتقليدهم ... ويستدلون ويحتجون وكذلك ... هم في الذكاء وخصوبة الفكر والابتكار ... رجالا يتفردون في حسن سياستهم ... القوانين العادلة في فضائلهم الخلقية ... بين الدين والدنيا[6] فكانت شخصية ... منهم وولد سنة ١٨٨٨م / ١٣٠٥هـ ... في كتابه India Wins Freedom ...

... أتوا من هرات إلى الهند أيام ... استوطنوا آغره (Agra) ... وكان لهم شغف بالعلم ... المعلوم انه ذاع صيت مولانا ... أكبر بسبب علمه وفضله ... العلمية إلى مباهج الدنيا ... واحد منهم عدة مناصب

رسمية عظيمة كما عين محمد هادي ناظر الحصن في آغره أيام الملك شاه جهان"[7].

وكان مولانا منور الدين جد أبي الكلام آزاد وكان أبي صغيرا لما توفى أبوه فرباه جده للأم وعزم مولانا منور الدين قبل سنتين من الثورة أن يهاجر إلى مكة المكرمة متضايقا من أوضاع الهند ولكن امسكته سكندر جهان بيغم في " بوبال" واندلعت الثورة وهو في " بوبال" وبقى محصورا هناك سنتين ثم وصل إلى " بومبائي" وأدركه الموت هنا ولم يتيسر له الذهاب إلى مكة المكرمة وقد بلغ أبي حين ذاك خمسا وخمسين من عمره إنه ذهب إلى مكة المكرمة واستوطن هناك وبنى له بيتا وتزوج بنت أخي محمد طاهر وترى وجاء إلى بومبائي وكلكته مرارا فبايعه كثير من الناس.

تعلم مولانا أبو الكلام آزاد العربية والفارسية على الطراز الذي كان شائعا آنذاك ودرس الحضارة والثقافة الإسلاميتين والعلوم الدينية دراسة نقدية واكتسب بصيرة عميقة في الدراسات القرآنية ولم يزل يكتسب الخبرة عن الأدب الإنجليزي والأدب الفرنسي في آخر عمره ولقد أعطاه الله سبحانه ذهنا نادرا قلما توجد مثله يقول الشيخ أسلم جيراج :

خدمات آزاد في تحرير البلاد وتوحيد صفوف المسلمين والهنادك:

لقد انجبت الهند رجالا شهد لهم علماء العرب بالفضل والكمال وعكفوا على كتبهم ومؤلفاتهم ويفتخرون بتقليدهم اللامع الفريد وينقلون ويقتبسون ويستدلون ويحتجون وكذلك انجبت علماء يندر نظيرهم في الذكاء وحصوبة الفكر والابتكار العلمي وكذلك من الملوك رجالا يتفردون في حسن سياستهم وتنظيمهم للدولة وسن القوانين العادلة في فضائلهم الخلقية والعلمية والعملية والجمع بين الدين والدنيا[6] فكانت شخصية مه لانا أبي الكلام آزاد احدا منهم وولد سنة ١٨٨٨م / ١٣٠٥هـ في مكة المكرمة كما يقول في كتابه India Wins Freedom (الهند تنال الحرية).

" قد غادر آباؤنا هرات إلى الهند أيام الملك المغولي بابر، استوطنوا آغره (Agra) أولا ثم انتقلوا إلى دهلي وكان لهم شغف بالعلم والمعرفة ومن المعلوم إنه ذاع صيت مولانا جمال الدين أيام الملك أكبر بسبب علمه وفضله ثم مالت هذه الاسره العلمية إلى مباهج الدنيا وزخارفها واحتل غير واحد منهم عدة مناصب

رسمية عظيمة كما عين محمد هادي ناظر الحصن في آغره أيام الملك شاه جهان"[7].

وكان مولانا منور الدين جد أبي الكلام آزاد وكان أبي صغيرا لما توفى أبوه فرباه جده للأم وعزم مولانا منور الدين قبل سنتين من الثورة أن يهاجر إلى مكة المكرمة متضايقا من أوضاع الهند ولكن امسكته سكندر جهان بيغم في " بوبال" واندلعت الثورة وهو في " بوبال" وبقى محصورا هناك سنتين ثم وصل إلى " بومبائي" وأدركه الموت هنا ولم يتيسر له الذهاب إلى مكة المكرمة وقد بلغ أبي حين ذاك خمسا وخمسين من عمره إنه ذهب إلى مكة المكرمة واستوطن هناك وبنى له بيتا وتزوج بنت أخي محمد طاهر وترى وجاء إلى بومبائي وكلكته مرارا فبايعه كثير من الناس.

تعلم مولانا أبو الكلام آزاد العربية والفارسية على الطراز الذي كان شائعا آنذاك ودرس الحضارة والثقافة الإسلاميتين والعلوم الدينية دراسة نقدية واكتسب بصيرة عميقة في الدراسات القرآنية ولم يزل يكتسب الخبرة عن الأدب الإنجليزي والأدب الفرنسي في آخر عمره ولقد أعطاه الله سبحانه ذهنا نادرا قلما توجد مثله يقول الشيخ أسلم جيراج :

" ما رأى احد مثل العلامة في الذهانة والفطانة وكلما قرأ أو طالع بإمعان النظر فقيدت في ذهنه العبارة والورقة والسطر"[8].

ويقول العلامة الأديب الأريب أبو الحسن الندوي:

" عندما ذكرت عنده كتابي عن سيرة السيد أحمد الشهيد وكلمته فوجدت كأنه طالع الوفا من الكتب عن شخصية الفذة" ولقد عده العلامة أنور شاه الكشميري من كيس الناس وأذكيائهم."[9]

ويقول آزاد عن نفسه:

" إنني ما حفظت شيئا كما يفعل الطلاب عامة خلال التدريس والتعليم منذ الطفولة إلى النهاية"[10].

وفي الأصل كان مولانا آزاد فارسا لميدان الدين والأدب إلى جانب حكنة في السياسة وكان صاحب قلب كبير ونظرة ثاقبة وأفكار نيرة ونظريات عالية وكان راسخ العزم مثل الهملايا وطاهر القلب مثل ماء زمزم ورفيع الفكر مثل السماء ومتوقد الذهن مثل الشمس ومتدفق الأفكار مثل الأنهار

وعميق العلم مثل البحار ومتنور العقل مثل الشموع وصاحب الفضل مثل الأشجار الظليلة وحلو الكلام مثل العسل وصحيح الطبع مثل الأزهار المتفتحة[11].

وإن لحياة آزاد (إمام الهند) ألوف من الألوان يتعسر تمييز الداكن منها عن الشاحب، ففي شخصيته تجسد الثبات والصمود بجميع معانيهما، وبه تعرفت الصحافة والخطابة على إنسان قدر على تسخير القلوب بقلمه ولسانه، ومنه أصبحت السياسية تمثل الصدق والحق، وهو الذي خاض العلم والأدب والتاريخ، فلم يترك وراءه من يماثله فيه، وأخيرا فإنه كان من أبطال جهاد الحرية واستقلال في طلائع الحركة التي جعلت من ذلك الكفاح معركة بين الحق والباطل وواجبا دينيا بالنسبة للمسلمين.

ومما لا يخفى على الناس خدمات مولانا آزاد عن الدين والسياسة والاتحاد بين المسلمين والهنادك وبذل جهوده الجبارة لذلك الهدف واختار للسياسة الصحافة فالهلال والبلاغ ليس في الأردية فحسب بل فى تاريخ الصحافة الهندية تتمتعان بحياة الخلود وكانت الهلال قد طلعت كشعاع للنور في ظلمات مطبقة، وقد هزت قلوب الخاصة وأذهانهم، وألهبت دماء العامة، وإذا تناسينا خدمات " الهلال" في تاريخ استقلال الهند، فلا شيء يكون أكبر نكران للجميل من هذا. كان مولانا

في الحقيقة عبقريا ومفكرا فريدا، وقد أتى في أواخر الزمان بما لم يأت به الأوائل كما قال المعري:

وإني وإن كنت الأخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الأوائل

وبعد نهاية الخلافة الإسلامية في تركيا قامت حركة الخلافة في الهند واشترك فيها بل وأصبح من أوائل دعاتها مهماتما غاندي مع زعماء المسلمين وظهر موقف موحد ضد الاستعمار البريطاني، وتطورت مسألة الخلافة حتى أصبحت مسألة قومية وتنورت مسألة حرية الهند في ضوء مسألة الخلافة وكان لا بد لنجاح حرية الهند الاتحاد بين الطوائف الهندية بأجمعها وبالأخص بين الهندوس والمسلمين، لأن حكومة الهند البريطانية كانت تذيق الهوان والهندوس كما كانت تجرع كأس الذل للمسلمين في الهند وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي، فلا بد للهندوس والمسلمين وسكان الهند جميعا أن يتحدوا لطرد عدوهم المشترك الذي دخل أرضهم وداس كرامتهم وعظمتهم، واستطاع بكافة وسائله أن يبث روح الخلاف والتفرقة بين الطوائف الهندية ليستمر في استعمار البلاد بطريقة القديم على أساس " فرق تسد" ونظرا لأبحاث مذكورة بدأت نظريات متطرفة بين الطوائف الدينية المختلفة التي تعرقل مسيرة الحرية، فهناك كم من أناس يدعون إلى

التعصب والحقد وبث روح الفرقة بين أبناء البلد الواحد والجنس الواحد، وكم من أناس يدعون لإقامة الدولة الهندية على أسس دينية قديمة وخرافات مزعومة لا أصل لها، فظهرت المشاكل الجديدة حيث نادى بعض الناس ببقاء الاستعمار البريطاني في الهند ليدافع عن الأقليات الهندية وكان هذا التفكير خطيرا جدا ومخطأ من وجهة النظر السياسية والواقعية لأن الاستعمار لا يستطيع أن يحمي الطوائف الصغيرة مهما كانت قوته وسطوته.[12]

ولا بد من اتحاد التعاون بين المسلمين والهندوس والجماعات المختلفة المتفاوتة من العقائد والملل كي يقابل الاستعمار ويحصل الحرية الكاملة من براثم البريطانيين وظلمهم في الهند فقام العلامة الشيخ أبو الكلام آزاد (إمام الهند) لذلك الهدف وبدأ سلسلة الخطابة والكتابة في أمكنة متفاوتة ومقامات مختلفة بين الخواص والعوام وبين الطبقة العليا والسفلى للاتحاد على أساس مشترك من الاحترم والتفاهم والاعتماد بين الأكثرية والأقلية ويناسب لي أن أقدم بعض المقتطفات من خطاب مولانا أبي الكلام آزاد التي تتعلق لهذه المناسبة.

يجب على المسلمين لنصوص القرآن والأسوة المحمدية أن يتحد ومع الهندوس ضد الحكومة البريطانية يكونوا قومية

هندية واحدة وأقول للمسلمين إن نداء النبي صلى الله عليه وسلم يعتبر أعظم نداء بعد نداء الله سبحانه وتعالى، فقد عاهد النبي صلى الله عليه وسلم معاهدة بين المسلمين الذين يسكنون في المدينة واليهود كتب فيها " أنا أمة واحدة" أراد بهذه المعاهدة ووحدة الأمة عرض الصلح عليهم وقيام دولة مطمئنة واتحاد الطائفتين ضد دسائس قريش.

وفي ٢٢ أبريل ١٩٢٠م أنشأ آزاد جمعية " حزب الله " لإسهام المسلمين في حركة تحرير الهند وبدأ يبايع الناس لذلك ويقول في سنة ١٩٢١م من مجلس الخلافة. وإن من نجاح الخلافة إنها أصبحت حركة هندية بالمعنى الكامل. وهذه ليست حركة جماعة من الجماعات ولا حركة المسلمين فقط بل هي حركة أهل الهند جميعا قد اشترك فيها مئتان وعشرون مليونا من الهندوس مع سبعين مليونا من المسلمين. وبنجاح حركة الخلافة على أساس الاتحاد بين الهندوس والمسلمين برزت مسألة حرية الهند بقوة ووصلت إلى ذروتها التي لم تبلغ إليها مع جهود أربعين سنة في الماضي.

ولا بد لنا من ترك موالاة الأعداء المستعمرين والاتفاق والاتحاد مع متبعي الاديان لم يظهروا لنا العداوة والبغضاء وهذا ثابت ومؤكد بصراحة في كثير من النصوص القرآنية. أنا

أعلنت في سنة ١٩١٣م عن طريق أول عدد من مجلة الهلال بأن أوامر الشريعة الإسلامية تفرض عليهم عدم ولاية الحكومة البريطانية لأنها أكبر خطر للإسلام والمسلمين وللأقوام والأمم الآسيوية وغيرها في العالم أجمع.[13]

وكذلك قال قولا تاريخيا في احتفال المجلس القومي لحزب المؤتمر في رام كراه في مارس سنة ١٩٤٠ وبين الاتحاد بين الهندوس والمسلمين وبأن أرض الهند ملك لجميع سكانها بدون أي تفريق ديني أو عنصري أو عرقي يقول مولانا أبو الكلام آزاد:

" أنا مسلم وافتخر بإسلامي، ورثت حضارة ثلاثة عشر قرنا ولا أرضي أن يضيع أي جزء من أجزائها ويجب علي أن أحافظ على تراثي المكون من العلوم الإسلامية، ولا أرضي أيضا أن يتدخل أحد في شئوني الدينية إطلاقا ولكن مع كل هذا يتولد عندي إحساس بعد معرفة الحقائق التاريخية الواقعية ولا يمنعني منه روح الإسلام وهو أنني افتخر بإنتسابي إلى الهند وبالقول بإنني من مكونات القومية الهندية فهي لا تزدهر إلا بوجودي، وقد اختارت الإرادة الإلهية الأزلية للهند أن تكون مسكنا وموطنا

لمختلف الأجناس والحضارات والأديان وقد بدأ هذا في أوائل التاريخ، ورحبت أرض الهند بجميع هذه القوافل وكان آخرهم نزولا القافلة الإسلامية واستقرت فيها إلى الأبد، واستمرت القافلتان (الهندوس والمسلمون) فيها تجريان في نهرين وفي الآخر انضما في بحر واحد هو بحر القومية الهندية فكما أن الهندوس يدعي أنني هندوس وهندي لأني سكنت فيها آلافا من السنين فكذلك المسلم يدعى أنني مسلم وهندي لأن الهند وطني من ثلاثة عشر قرنا".

ولقد كان آزاد داعيا للاتحاد بين الهندوس والمسلمين إلى حد كبير وقد قضى حياته لذلك فيقول بالحرف الواحد:

" لو نزل ملك من السماء وأعلن من منارة قطب في دلهي الجديدة إن الحرية ستمنح للهند في غضون أربع عشرون ساعة بشرط أن يتخلص الهند من الاتحاد بين الهندوس والمسلمين فأنا أرفض الحرية لأن الحرية لو تأخرت فهذا سيكون خسارة للهند فقط ولكن لو

ذهب اتحادنا فستكون خسارة فادحة للإنسانية جمعاء".

كما قال سر سيد أحمد خان :

" الهند كعروس لها عينان جميلتان هما المسلمون والهنادك وإذا اشتكت منهما تداعي الاخرى"[14].

وبجهوده المتواصلة تحررت الهند في سنة ١٩٤٧ من براثن الإنجليز.

ومما لا يخفى علينا الأحوال السياسية والظروف الاجتماعية الفاشية في الهند قد مست لنا الحاجة الملحة أن نمشي على طريق الاتحاد الذي أناره مولانا آزاد ولا يطفى ضوءه أبدا ويستطيع الهندوس والمسلمون والملل المختلفة أن يمشوا في هذا الدرب الذي يوصلهم في النهاية إلى طريق المجد.

الأديان التي ذكرها أزاد في كتاباته:

أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين ولعبة المحرفين حتى فقدت روحها وشكلها فلو بعث أصحابها

الأولون لم يعرفوها. وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى، والانهلال والاحتلال وسوء النظام، وعسف الأحكام، وشغلت بنفسها، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة، وأفلست في معنويتها، وتضب معين حياتها، لا تملك شرعا صافيا من الدين السماوي ولا نظاما ثابتا من الحكم البشري.[15]

إن الهند أمة كبيرة وملة عظيمة روحانية حيوية سائدة من أقصاها إلى أقصاها من أرباب الديانات والملل وأهل الأهواء والنحل من الفرق الإسلامية الخالصة النقية وغيرهم ممن له كتاب منزل محقق مثل اليهود والنصارى وممن له شبهة كتاب مثل المجوس والمانوية وممن له حدود وأحكام دون كتاب مثل الصابية وممن ليس له كتاب ولا حدود وأحكام شرعية مثل الفلاسفة والدهرية وعبدة الكواكب والشمس والأوثان والبرهمية إلا أنهم مختلفون في شكل المسالك التي استبدعوها وكيفية أشكال وضعوها وطرق عبادتها والتقرب إلى الله والنذر له و التضحية لرضاه[16]. فابدأ بالبراهمة:

نستطيع أن نقسم أمثال هذه الملة القديمة إلى قسمين: (١) البرهمية (٢) والهندوكية.

أما البرهمية فهي التي كانت مروجة عامة في الهند بعد مجيء الآرية (خمسمائة وألف سنة قبل المسيح تقريبا) إلى انتشار البوذية والجينية (قبل أربعمائة سنة قبل المسيح تقريبا) وكانت البرهمية تحتل مكانة بارزة لأن تطور مسلك البراهمة ورقيها تنحصر عليهم وأما البرهمية فقد تركوا أثرا كبيرا على هذه الأمثال مع ممثل أفكار ملة آريين كاملة مهما أن هناك تغيرات كثيرة مع مرور الزمن. وكما هو المعروف إن الويد له أهمية كبيرة في الأدب الديني من الهندوكية عند البرهمية ومتبعيها لأن ما يشتمل فيه لا يعتبر خلقا جديدا من الناس وإضافة من الجمعية، ويعتقد عن الويد أن ما فيه من الأحكام والصفات صحيح وحقيقة ليس كذبا وافتراء وله مكانة مرموقة، ولو أن جميع الويد مقدسة متساوية ولكنها قد قسمت متساوية ولكنها قد قسمت إلى عدة أقسام لأغراض متفاوتة ولأهداف متنوعة واشتهر قسمان إلى حد كبير والقسم الأول باعث للرغبة وهو زمن التأليف الأجزاء المختلفة للأدب الويدك ونظرا إلى التقسيم المذكور الجزء القديم للأدب الويد كي يقال (سمهتا) أعني مجموعة للغناء والبجن والموسيقية المقولة في شأن آلهة آرية القديمة، وما ألف بعده من الأدب الويدكي المشهور باسم البرهمية، والأدب الويدكي ينقسم إلى أربعة أقسام آتية.

(١) رك ويد (٢) سام ويد (٣) يجر ويد (٤) واتهر ويد ويقال : كل الويد المذكورة جزئه الأول سمهتا والثاني البرهمية والثالث آرنيكا والرابع ابنيشد.[17]

تصور التوحيد ووحدة الوجود لأوباني شد:

وهنا نذكر أهم النكات التي بينها مولانا أبو الكلام آزاد عن نظرية وحدة الأديان.

(١) وجود الباري هو عقيدة توجد في جميع الأديان وهذه وراثة مشتركة بين أبناء البشر، عبادة الله وديعة في فطرة الإنسان. والأديان كلها تصدق هذه الحقيقة وتعلمها.

(٢) الفرق الدينية تختلف اختلافا كبيرا في ثلاثة أشياء فقط.

(٣) (الف) هم يصرون على صفات الهية مختلفة (ب) الفرق بين طرق العبادة (ج) اختلاف الشرائع.

(٤) وهذه الاختلافات قد نشأت باختلاف الزمان والمكان ثم أن للأذهان البشرية لها مراتب ودرجات في

الارتقاء ولا يمكن لأحد أن يقول شيئا جديدا في وجود الباري ورسالة الأنبياء واحدة في هذا الصدد، وإن ذات لله تعالى ما وراء العقل الإنساني وفهمه[18].

إن في زمرة رغويد يرى التصور البدائى لعبادة مظاهر القدرة في جانب وتظهر نظرية ذات الإله سبحانه لخالق هذا الكون العظيم الذي له ملك السموات والأرض وما فيها من رطب ويابس في جانب آخر، وتصور هذا التوحيد كان بقية لأفكار الزمن القديمة وأمال تصور القدرة الإلهية الكثيرة النادرة إلى تصور التوحيد وإلى نظرية الوحدة وهي مرحلة مشكلة أن نحكم بها ولكن الزمن التي اختارت أفكار رغويد نفوذها وبسطها نستطيع أن نشاهد لمعة الفكر التوحيد لذات الإله وتعدد الآلهة التي يبلغ عددها إلى ثلاثمائة أو أكثر منها في أشكال ثلاثة أعني الأرض والفضاء والسماء حتى أختارت هذه الثلاثة تصور رب الأرباب (Hendthesim) أعني بها أن هناك رب كبير عظيم قوي فى الآلهة يفعل الأرباب الصغار تحته أو حسب حكمه كما كانت عقيد اليونانيين والرومانيين عن المشترى[19] وظهرت شخصية عظيمة فتوجد أحيانا في الباطل وأحيانا في الداخل وفى بعض الأحيان في (أكنى) أي في النار ونشأ حقيقة إله واحد لا إله إلا هو وليس له مثيل وبديل وشريك وهو خالق كل شيء وهو عزيز حكيم وأهل العلم

يعرفونه بأسماء مختلفة مثلا أكني، ما ترى شوان وهو ليس السماء والأرض ولا الشمس والجبل بل هو روح العالم ومنبع القوات لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

وهذه هي الأصول والنظريات التي نشأت فكرة التوحيد ووجوده في أوباني شود وعقيدة وحدة الوجود كذلك أكدت فيها تأكيدا حارا. وعندما نطالع الصفات المذكورة فنجد اعتقادات تحتل الصفات الإيجابية والسلبية أعني هو واحد ليس كمثله شيء هو يخلق ويضغط ويرزق ويهلك وإليه يرجع الخلائق ولكن ما بقي تصور التوحيد الخالص من آلهة متنوعة وسادت عقيدة التوحيد في الصفات مع عقيدة التوحيد في الذات والصفات حتى غرقت الهند من قمة الرأس إلى أخمص قدميها في العقائد الإشراك وعبادة الأصنام والأوثان. إما الصورة المذكورة عمت وراجت كثيرا فلو أن مخابر لو لم يحاول محاولة كاملة ويبذل جهودا جبارة فلا يمكن له أن يجد علامة فكرة التوحيد في العقيدة البرهمية ولا يعرفها إلا العالمون والذين لهم إلمام لذلك ونجد رمزها في غار الجبل ليس في مقام عام فالبيروني عندما تشرف الهند بقدومه كي يعلم سر علوم الهند وعقائدها فتعجب كثيرا في القرن الحادي عشر وكذلك أبو الفضل في القرن السادس عشر ومستر سر وليم جونس في القرن الثمانية عشر ولكن نعتذر في هذا الأمر كما أشار إليه

"غيتا" والذي توجه ذهن الفيلسوف البيروني إلى نفسه أن هناك قد افتتحت طرقا كثيرة للعمل والعقائد كي تراعي بها أذهان الخواص والعوام. وأما فكرة التوحيد فكان للخواص لأنهم يليقوا بذلك ونظرية الأوثان في حياتهم العملية لأجل ذلك هيئة حياة الهندوكية مبنية على الأصنام وعبادة الأوثان بدون استثناء.[20]

البوذية:

إن الزمان قبل القرن السادس المسيحي له أهمية كبيرة في تاريخ الديانة العالمية وظهرت شخصيات عباقرة غيروا مجرى التاريخ وأعطى الناس روحا جديدة حيوية وظهر أصحاب البوذية بعد البرهمية القديمة وكان معظم الناس يتبعون على هذا المسلك قبل ظهور الإسلام، وولد غوتم بودة في حديقة لنبني، بولاية بيهار (الهند) عندما ذهبت أمه إلى أبيه (الملكة مهامايا) سنة ٥٦٢ قبل المسيح وبعد هذه الحادثة العظيمة سنة ٣١٦ تقريبا نصب الملك اشوك حجرا كبيرا على ذلك الطريق[21] وهو موجود إلى الآن واثبت بذلك مكانه التاريخي وبعد مدة وسع نطاق هذه الملة وخرجت من الهند إلى دول أخرى.

البد:

معناه شخص لم يولد ولا ينكح ولا يطعم ولا يشرب ولا يهرم ولا يموت[22] ولا يصل إلى تلك الرتبة إلا من منح بالصبر

والعطية وبالرغبة فيما يجب أن يرغب فيه وبالامتناع والتخلي عن الدنيا والاعراض عن شهواتها والعفة عن محارمها والرحمة على جميع الخلق والاجتناب عن الذنوب العشرة : قتل كل ذي روح واستحلال أموال الناس والزنا والكذب والنميمة والبذاء والشتم وشناعة الألقاب والسفح والجحد لجزاء الآخرة وإن في تعليم غوتم بوده أصول خاصة لعشر خصال آتية معروفة الأول : الجود، الثاني : العفو عن المسيء ودفع الغضب بالحلم ، والثالث: التعفف عن الشهوات الدنيوية، والرابع: الفكرة في التخلص إلى ذلك العالم الدائم الوجود من هذا الكون الفاني، الخامس : رياضة العقل بالعلم والأدب وكثرة النظر إلى عواقب الأمور، والسادس : القوة على تصريف النفس في طلب المعالي، السابع : لين القول وطيب الكلام مع كل واحد، الثامن: حسن المعاشرة مع الأخوان بإيثار اختيارهم على اختيار نفسه، التاسع : الإعراض عن الخلق بالكلية والتوجه إلى الحق بالكلية، العاشرة: بذل الروح شوقا إلى الحق ووصولا إلى جناب الحق[23].

هناك تفاسير متنوعة لاعتقادات مذاهب البوذية ويقول جماعة من المتشردين إنها استغرقت عمليا لتعليم " اوبانيشد" وتعتقد أن أصل الروح موجود في " نروان" أعني أن الإنسان يرجع ويصل إلى منبع خرج منه " نروان" معناه نجاة كاملة ولكن يسلم الآن، ليس هناك تصور كيان الروح في الملل

الشمنية وأفكارها محدودة في مسألة النجاة وفي الحياة العملية ومما لا شك فيه أن هذا التفسير صحيح طبقا لأبحاث المفكرين لمذاهب " الشمنية " البوذية[24] وجماعة من البوذية تعتقد أن نظام العالم كله لا يحرك بأمر اله واحد له ملك السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وما يحدث من الخير والشر، الجراء والعقوبة، الهداية والضلالة، والكفر والشراك والعصيان إنما هي نتيجة ما يقتضيها العالم وما يتطلب الدهر[25].

والحقيقة إن عبادة الأوثان والأصنام كانت عميقة قبل ظهور البوذية فأصحاب البوذة بذلوا جهودا لصد الأوثان وعبادتها وحاولوا على مسائل الحياة العملية فكانت نتيجة هذه المحاولة أن ينكر الإنسان من عقيدة البرهمية وصفاتها وكرامتها وعظمتها وأكدوا إن النجاح والفوز الحقيقي في علم الحق والعمل الصحيح ليس في عبادة الأوثان وهذه الشدة اختارت صورة الإنكار الكلي وتسببت رواج العقائد البرهمية ولم يمض أيام عديدة على وفاة غوتم بوده حتى جعلوه الناس فوق الصفات البشرية كمعبود وإله ينفع ويضر، يعطي ويمنع وربما يأخذ ما أعطاه. وتفرق متبعوه إلى فرقتين كبيرتين هنيان ومهيان والجماعة الأولى تنصور غوتم بوده كقائد عظيم ومعلم كبير والحماعة الثانية جعلوه فوق فطرة البشرية واتخذوه كإله ومعبود يستطيع النفع والضرر، الاخذ والقبول وكان معظم

الناس مع الجماعة الثانية. وشاعت نظرية مهايان في أفغانستان وباميان ووسط آسيا والصين وكوريا واليابان وكذلك التبت ويقول بعض الباحثين من العصر الراهن ما كانت مروجة عبادة الأوثان والخضوع لها في مذاهب البوذية إلى ملك اشوك ولكن بعده انضمت أفكار الأوثان مع شخصيته الفذة وتعاليمه الرائعة[26].

الزرادشتية :

الزرادشتية أصحاب زرادشت بن بورشست الذي ظهر في زمان كشتاسف بن لهراتسب الملك وأبوه وأمه من الري واسمها رغدو. وعندما ظهرت الزرادشتية فنجا الإيرانيون من عقائدهم القديمة وعمت تعليم " المزويسنا" إن نعبد إلها واحدا وهو أحد لا شريك له ولا ضد ولا ند وهو نور وحكمة خلق كل شيء وجعل للإنسان عالمين الحياة الدنيوية والحياة الأخروية أما الحياة الأخروية فتبدأ بعد الموت والإنسان يجزي حسب الأعمال والحركات وأقيمت نظرية المليكة " أمش سبند" بدل الملاك ووجود الشيطان مقام قوة الظلمة والإثم ولم يزل يتضح عقائد الآريين في التعليم الزرادشتية، ومن العجب يبدأ اسم واحد في الهند وإيران ولكن ستعمل لمعنى متضاد مثلا يستعمل في الهند ديو دي وتيوس لله تعالى وفي إيران يستعمل للشيطان

وعلى هذا السبيل أصبح الإله لواحد الشيطان لآخر والشيطان الإله لواحد.

وبعد زمن قليل غلبت أفكار إيران القديمة على الأثرات الخارجية وفي الزمن الساسائي عندما استأنف تعليم مزيسنا فكان هناك مركبا مختلجا لعقائد المجوسية اليونانية القديمة والزرادشتية ولما ظهر الإسلام فكانت هذه الأفكار المختلفة تصور القومي والملي لإيران وجاء المهاجرون المجوسيون إلى الهند حاملين هذه النظريات والعقائد وغلبت عليها مضاعفات الهندية المحلية. ويتصور المجوس أيضا أن هناك قوتان كبيرتان للخير والشر وإنهما يحكمان على العالم كله ما يفعل " اهورامز" هو علامة الخير والنور، القوة والعدل، الهداية وما يصدر من " اهرمن" هو الظلام والشر والعمية العمياء وقسمت كذلك فكرة المجوس لهذا الكون العظيم في قوتين عظيمتين متضادتين[27].

اليهود والنصارى:

هاتان الأمتان من كبار أهل الكتاب والأمة اليهودية أكبر لأن الشريعة كانت لموسى عليه السلام وجميع بين إسرائيل كانوا متعبدين بذلك مكلفين بالتزام أحكام التوراة والإنجيل النازل على المسيح لم يختص أحكاما ولا استبطن

حلالا وحراما ولكنه رموز وأمثال ومواعظ ومزاجر وما سواها من الشرائع والأحكام فمحالة على التوراة كما سنبين فكانت اليهودية لهذه القضية لم ينقادوا لعيسى وادعوا عليه إنه كان مأمورا بمتابعة موسى وموافقة التوراة فغير وبدل وعدوا عليه تلك التغيرات[28] وبدلوا القوانين وحللوا الحرام وحرموا الحلال واتخذوا الشريعة المطهرة العوبة ففعلوا كما شاءوا وما اشتهت أنفسهم وأذهانهم حسب إمكانياتهم لقضاء حياتهم الفردية والاجتماعية.

تصور اليهود:

الله سبحانه يحتل مرتبة متوسطة في التجسيم والتنزيه وغلب عليه عنصر الغضب والانتقام والإكراه وعلاقة الرب سبحانه مع الناس وعباده كعلاقة الزوج مع زوجته والإنسان غيور جدا ويعفو المزلات والهفوات لزوجته ولكنه لا يحب أن يشرك في حبها أحد وكذلك الرب لأسرة بني إسرائيل غيور إلى حد كبير وقد جعل الأسرة الإسرائيلية وجمعيتها لزوجة له فخيانة الإسرانيل تأتى غضب الله ويليق أن يعاقبوا ونكلوا وعذبوا بها فكان هذا الأمر في أحد الأحكام العشرة (Ten Commandment) إن لا تشكلوا أحدا وتعبدوه لأني إله ذات حمية كبيرة.

التصور المسيحي:

لقد تغير تصور المسيحي من زمان يشيا الثاني وظهر عناصر الوسعة واللطافة وسادت في البيئة الحب والشفقة، الكرم والعفو فليس تصور الرب كملك جبار وقهار ولا كزوج ذي حمية كبيرة ذي شدة وغضب، ومما لا شك فيه إن هذا الفكر كان فكرة ثورة بالنسبة إلى الأفكار اليهودية التي تملأ بالغضب والقهر والعذاب الأليم وأما تصور المسيح باعتبار التحيز والحجمية فكان كما بلغ إليه تصور اليهود ولكن عندما لصقت فكرة عقائد المسيحية من عبادة الأصنام والأوثان الرومية فسادت وفشت نظرية الأقاليم الثلاثة يقولون:

> " الباري تعالى جوهر واحد يعنون به القائم بالنفس لا التحيز والمحجمية فهو واحد بالجوهرية ثلاثة بالاقنومية ويعنون بالأقاليم الصفات كالوجود والحياة والعلم والأدب وابن روح القدس".

مهما إن هناك اختلاف ففريق من المسيحيين يقولون : بالأب والابن وروح القدس. واختارت تصور الأوثان الإسكندرية فكرة المسيحية فكان أصحاب المسيحية ينكرون الوثنية على الرغم من أنهم منهم فلما نزل القرآن الحكيم فكانت

المسيحية تشتمل على عقائد الأقاليم الثلاثة بالإضافة إلى المحبة والرحمة والشفقة والكرامة والشرفة والفضيلة والشفقة الأبوية 29.

السيخ :

هم أصحاب يتبعون تعاليم غرونانك المولود سنة ١٤٦٩م في بنجاب وكلما يزيد عمرا يزيد طلبه عن الأفكار الملية والبحث عن رموز الكون ودائما يفكر عن خالق الأرض والسموات العلي وصانعه ولا يبالي بالدنيا ومتطلبات الحياة ومسؤولية البيئة والمجتمعات والأسرة ولما وظف في حكومة لودي خان لم يرغب في شؤون الحكومة فيقضي صباحا وليالي في ساحل البحر حيث يتغنى وينشد بينه وبين ربه وصفاته البارزة ثم ترك الوظيفة واختار العافية في جبل ويعبد ربه ويطمئن به نفسه وقلبه. وإنه قضى وقتا كثيرا في الجولات والرحلات واشتغل فيها من أقصا العالم إلى أقصاه وبحث عن أسرار الله وملأ خاطره بحب الله وعشقه ولا فرق عنده بين الأمير والفقير، الملك والعبد، الصغير والكبير، والأسود والأبيض وبين جنس وجنس يأكل ويشرب ويتمتع معا. ومن العجب ما كانت عقيدته متفاوتة عن عقيدة التوحيد الخالص

فنجد في كتابه " غرنت صاحب" عبارات كثيرة تدل على التوحيد والعقيدة الخالصة فعلى سبيل المثال:

ايك اونكار (الله واحد) ست نام (هو حق) إكالي مورتي (هو أزلي وأبدي) كرتا بركهـ (يفعل ما يشاء) سه بهن (هو قائم لذاته) وعدا ذلك.

وكان غرونانك يعتقد لو يعمل الإنسان بالأعمال الآتية فتكون مساعدة ومعاونة على حب الله والتقرب إليه : خلق حسن، خدمة عباد الله، حصول رزق الحلال وإسهام الآخرين فيه، التواضع، الحب للناس الصغير والكبير الملاك والعبد، الغني والفقير، النصح للإنسانية جمعاء. ولكنه مع ذلك كله ما حبب الرهبانية والعزلة بل خالفها إلى حد عن الناس والأسرة وعلم الناس أن يقضوا حياتهم الاجتماعية والانفرادية مع حقوق أهل البيت لأن لهم حقا عليه ويقول : " الإنسان يبعث إلى هذا الكون بأشكال متنوعة (النباتات والحيوانات وأشياء لا روح فيها) ما لم يحصل عشق الله الكامل ومحبته الحقيقة ويكون بعيدا عن تقرب الله وبعد وفاة غرونانك سنة ١٥٣٩م انقسم متبعوه إلى عدة أقسام ومازالوا يمشون على الدرب الذي أناره غرونانك بالصدق والأمانة ويعملون بما كتبه في كتابه العظيم (غرنتهـ صاحب) ويفتخر متبعوه بها إلى الآن[30].

خلاصة دعوة آزاد لمتبعي الأديان:

إن الشيخ أبا الكلام آزاد ثبت في الناس روح الإصلاح والتعليم والجهاد والاتحاد وايقظهم من سباته العميق وبغضهم للاستعمار البريطاني، وكان الاستعمار في ضوء تعليم الكنيسة المسيحية ضد الإسلام وتحت إثارة الحروب الصليبية التي أثارها العالم المسيحي ضد العالم الإسلامي فكان يدعو جميع متبعى الأديان إلى كلمة واحدة وإلى طريق واحد هو طريق إله واحد وكان رأيه إن الدين يجمع أشتات الناس ولا يفرقهم أبدا، فاجتمعوا أيها الناس تحت رحمة إله واحد ومعبود حق واتحدوا تحت لوائه واحبوا وتعانوا وتعاطفوا ولا تدابروا ولا تخاصموا، وقد نهانا الله عن التفريق بين الرسل ولا يكون الإيمان كاملا إلا بالإقرار بجميع الرسل لان الله واحد فالحقيقة واحدة والصدق واحد لا تحده القوميات والأزمة والأمكنة والحدود الجغرافية فالله إله الجميع ورب العالمين ودينه القويم وهو دين الناس أجمعين وهذا هو روح القرآن وتعاليم الإسلام فالدين هو الوسيلة الوحيدة لطمأنينة النفس وسكون القلب[31].

وخلاصة دعوته كما بينه الدكتور ذاكر حسين رئيس جمهورية الهند سابقا ومن كبار علماء التربية والتعليم في الهند هي:

" إن الدين نوعان النوع الأول ما يتولد منه الحقد والتنافر وهو يفرق الناس ويبعدهم وهذا هو الدين الباطل، أما النوع الثاني فهو ما يتولد منه التقارب والتفاهم والرحب الشامل وهذا هو الدين الحق وهو يعلمنا وحدة بني آدم فكل من يريد التفرقة وبث روح العصبية وجعل الناس أحزابا وشيعا متفرقة بالنعرات الجاهلية من وطنية وعرقية ودينية فقد يجرنا إلى التهلكة والدمار ويريد أن يهدم جنس بني آدم"[32].



المراجع:

[١] - دنيا كى برى مذاهب (المذاهب الكبيرة العالمية)، عماد الحسن آزاد الفاروقى، ص: ١٢٥، ١٩٨٥، مكتبة جامعة لمبتبد، دلهى

[٢] - تحقيق ما للهند، البيروني، ص: ٢٣، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ عالم الكتب البيروت.

[٣] - أم القرآن لمولانا أبو الكلام آزاد، ص: ١٧١، مكتبة شهزاد، دلهي

[٤] - المسلمون في الهند، الشيخ أبي الحسن على الندوي، ص: ١٤،١٢،٧، الطبعة التالثه، ١٩٨٧م، المجمع الإسلامى العلمى، لكناؤ

[٥] Discovery of India- جواهر لال نهرو،ص: ٣٣٥-٣٣٦، آكسفورد يونبورستي بريس، دلهي، ١٩٦٤

[٦] - المسلمون في الهند،ص: ١٥

[7] - الجمعية آزاد نمبر، ص: ١٨ نقلا عن كتاب مولانا آزاد " فكر وفن" ملك زاده منظور، ١٩٨٨انسيم بكدبو، لكناؤ

[8] - نفس المصدر، ص:٥٦

[9] - آزاد كى كهانى آزاد كى زباني ، ص: ٢٠٦ حالى ببليشنغ هاؤس، دلهي، ١٩٨٥

[10] - ثقافة الهند، ص: ١٢٧، المجلد ٣٩، العدد ١-٢، دلهى

[11] - نفس المصدر، ص:٢٨٤

[12] - نفس المصدر،ص: ٢٥٥-٢٥٦

[13] - خطبات آزاد، مالك رام، ص: ٢٢-٢٥ وكذلك خطبته بكولكاته، يوم ٢٧ أكتوبر، ١٩١٤م ساهيته إكاديمى، دلهي، ١٩٥٨

[14] - نفس المصدر، ص:٢٩٧-٢٩٨

[15] - نقد أبي الكلام آزاد، للدكتور رضي الدين أحمد، ص: ٥١٣، شري ونكتيسورا يونيورستي تروبتي، آندهرابردبش

[16] - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للشيخ أبى الحسن الندوي، ص:٢٨، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٣٨١هـ

[17] - الملل والنحل، محمد الشهرستانى، لندن

[18] - دينا كي بري مذاهب، ص: ١٧٥

[19] - ثقافة الهند، ص: ٢٤٤-٢٤٥

[20] - ام الكتاب، ص: ١٩٤-١٩٥

[٢١] - حاشية ام الكتاب، ص: ١٩٤-١٩٦

[٢٢] - دنيا كى بري مذاهب، ص: ٧٤

[٢٣] - الملل و النحل، ص: ٤٤٨

[٢٤] - نفس المصدر ص: ٤٤٧

[٢٥] - ام الكتاب، ص: ٢٠٣

[٢٦] - The Dabistan by David Shea & Anthony Troyep ¾ printed at Aciatic Society, London 1845, Vol 2

[٢٧] - ام الكتاب، ص: ٢٠٤-٢٠٥

[٢٨] - نفس المصدر ص: ٢٠٦ -٢٠٧

[٢٩] - الملل والنحل، ص: ١٦٢-١٦٣

[٣٠] - تلخيص ام الكتاب، ص: ٢٠٨، ٢١٦

[٣١] - دنيا كي بري مذاهب ص: ١٩٩، ٢١٨

[٣٢] - ثقافة الهند، ص: ٢٤٤-٢٤٥



الهند كمهد للديانات في ضوء كتابات مولانا أبو الكلام آزاد

ـ نصرت جان

تحتل حضارة الهند مكانة عليا في حضارات العالم قديماً وحديثاً وذلك لأنه قد انضم إليها كثير من الديانات المختلفة المتباينة وأنها جذبتها انجذاب الدم في العروق حتى لم يبق فرق عظيم بينها إلا في طرق العبادات ولم يكن ذلك إلا يسيراً.

نجد من مطالعة تاريخ الهند أن للهند شرفا عظيما في كونها مولدا لكثير من الديانات التى تأثر بها فكر العالم الإنساني ومنبع حياته ومنهج علمه ولذاك تبين لمن خاض في التاريخ الهندي أن الهند يزداد عدد الديانات التي نشأت فيها على جميع البلاد فى قارة آسيا.

كانت الهند حضنا لدين من عاشها قبل خمسة آلاف سنة وذلك من قبل أن سكنها أريون – وإذا قدم إليها أريون جاءوا بدينهم وحضارتهم ولغتهم وجعلوا يسكنونها كما يسكن البيت المتوارث – أثر دين آريين على دين من عاش الهند قبلهم كما تأثر من دينهم وهكذا تولد التمدن الهندي العظيم الذي ما زال مركزا للباحثين في تحقيقاتهم إلى زمننا هذا.

ثم بدأ منظر آخر على المسرح الهندي وهو نشأة الحركات الإصلاحية التي قام بها ودعا إليها بود القائد المعروف ومنشيء الدين البودي ومهاوير منشيء الدين الجيني. وقد تأثر التمدن الهندي بهما أشد تأثير ولكنهما بعد قليل من الوقت انضما إليه وأصبحا جزءً ما لا ينفك للحضارة الهندية.

ثم جاء الإسلام . وكانت للإسلام من قبل دخوله الهند حضارة مستقلة ولكنه بعد أن دخل الهند بدت فيه جوانب شتى ما ظهرت منها الهندوسية بصورتها الكاملة. بقي للإسلام صلة بالعرب روحانية فحسب أما طراز الحياة وتنظيم المعاشرة وتكوين الحكومة وإدارتها فإنه قد تغير تماما وانضم إلى التمدن الهندي.

ما انتهت سلسلة تنمية الحضارة بعد أن سكن المسلمون الهند بل ازداد فبها كثير من الحلقات التي أحكمتها وأوسعتها.

إن الملوك والصوفية من المسلمين لعبوا دوراً مهماً في تنمية الفنون الجميلة ومنها الموسيقى والأدب واللغة والفن البنائي وصبغوها باللون الهندي لأنهم كانوا قد توطنوا الهند كأرض ولادتهم.

وقد اشتركهم في هذه الأعمال كثير من الناس الذين لم يكونوا مسلمين ولكنهم مشوا معهم لتحقيق أهدافهم متكاتفين ومنهم كبير، غرونانك، تان سين وغيرهم. الحضارة الهندية التي نراها الآن قد تكونت من الأجزاء المختلفة على مر الدهور واستمر تكوينه بعد أن ولج الإنجليز الهند بحضارتهم ولغتهم واستفادت الحضارة الهندية من الحضارة الإنجليزية أيضاً.

المولانا أبو الكلام آزاد كان يشعر بهذه الحقيقة تماما أن الحضارة الهندية قد لجأت إليها الديانات المختلفة زائداً على ما تولدت فيها. ولذلك صرح في كتاباته صرحاً أن للهند شأنا في كونها مهداً للديانات ما امتازت به على جميع البلاد في العالم.

إن لأبي الكلام آزاد فضلاً في قواد الهند أنه حاول محاولة بالغة وبذل مجهوداته الجبارة وسعى سعيا مشكوراً في جعل الهند وسكانها متحداً لأنه كان يعلم أن وطنهم واحد ومشربهم واحد وحضارتهم واحدة ومقصدهم واحد. وكان هذا الاتحاد بناء عنده لجهده في إخراج الإنجليز من الهند. يقول في إحدى خطباته:

" حضـرات ! مـين نـي آب كـا اس قـدر وقـت در وديوار كي فكر مين لي ليا. حالانكه يه بات ابهي باقي هي كه هماري جدوجهد كي بنياد كا كيا حال هي. ميرا اشاره هندو مسلم اتحاد كي طرف هى. يه هماري تعميرات كي وه بهلي بنياد هي جس كي بغير نه صرف هندوستان كي آزادي بلكه هندوستان كي وه تمام باتين جو كسى ملك كو زنده رهني اور ترقي كرنى كي لى هوسكتي هين محض خواب وخيال هين.[1] "

انشق قلبه إذا رأى الهنود والمسلمين قد اتسعت فجوة اختلافهم وذلك لأدنى أغراضهم وتركوا التفكر في الطرق التي يترقى بها الوطن المحبوب. يسيل الدموع على حالتهم. ويعتقد أنه من يحب وطنه على قدر ذرة لا يستطيع أن يرى هذه الحالة صابراً. ما لهذا القوم الذين أعلنوا بشرفهم الوطني وقالوا لأقوام العالم أن ينتظروا لحريتهم ولكنهم إذا ألقوا سمعهم إليهم جعلوا يقتلون أبناء وطنهم وأفسدوا في الأرض. يقول:

" ملك كي موجوده حالت كيا هي؟ كون هي جو هندوستان كي عشق ومحبت كا ايك ذره بهي ابني دل مين ركهتا هو اور اسي صبر وبرداشت كي ساتهـ ديكهـ سكي. جار سال هوئي هم ني قومي

عزت وشرف كا ايك برا اعلان كيا اور دنيا سي كها كه وه هماري آزادي كي داستان سنني كي لي كوش بر آواز هي هم آماده هوكي هين كه ابني غلامانه شرمناكي اور ابني مجنونانه كشت وخون كي اس كي لي كهاني ترتيب دين.[٢]"

كان أبو الكلام آزاد يحس بالفخر على كونه مسلماً كما كان يفتخر على كونه هندياً وذلك لأنه كان يعد نفسه جزء ما لا ينفك للاتحاد الوطني الغير المنقسم. يقول إن الهند كان قد قدر لها أن تكون منزلاً لقوافل الإنسان على اختلاف أنسابهم وحضاراتهم ودياناتهم. وقد بدأ قدوم هذه القوافل في الهند على طليعة صباح التاريخ الإنساني ثم استمرت سلسلتها. واستقبلت أرض الهند الواسعة هذه القوافل بكل بشاشة وأخلت لها مهدها السخى.

" مين مسلمان هون اور فخر كي ساتهـ محسوس كرتا هون كه مين مسلمان هون. ليكن ان احساسات كي ساتهـ مين ايك اور احساس بهي ركهتا هون جسي ميرى زندكي كي حقيقتون ني بيدا كيا هي. اسلام كي روح مجهي اس سى نهين روكتي. وه اس راه مين ميري رهنمائى كرتي هي. مين فخر كى ساتهـ محسوس كرتا هون كه

مـين هندوسـتانـي هون. مين هندوستان كي ايك اور ناقابـل تقسيم مـتحده قومـيت كـا ايك عنصـر هون. هندوستان كـي لـي قدرت كـا يـه فيصـله هوجكا تها كـه يـه سـر زمـين انسان كي مختلف نسلون مختلف تـهذيبون اور مختلف مذهبون كي قافلون كي منزل بنـي. ابـهي تاريخ كي صبح بهي نمودار نـهين هوئـي تـهي كـه ان قافلـون كي آمد شروع هوكئـي اور بـهر ايـك كـي بعـد ايك سلسله جاري رها. اس كـي وسيع سـر زمـين سـب كـا اسـتقبال كرتـي رهـي. اور اس كي فياض كود نـي سب كـي لـي جكـه نكالـي."[٣]

يقول بكل حماسة إنه لم تبق ناحية من نواحي حياتنا الهندية إلا ملأها تاريخنا الموحد المشترك الذي يشتمل على أحد عشر قرناً بالوسائل البنائية. لغاتنا وشعرنا وأدبنا ومعاشرتنا و أذواقنا ولباسبنا وتقاليدنا – وهكـذا كثيـر مـن حقائـق حياتـنا العاديـة – كـل مـنها اصـطبغ بلـون الحياة المشتركة الموحدة. كانت لغاتنا مختلفة ولكننا تكلمنا لغة واحدة. كانت تقاليدنا أجنبية ولكنها بعد أن اختلط بعضها بعضـاً خلقـت هيـئة جديـدة. يمكـن مـن أن يـرى لباسـنا القـديم علـى الصـور التـاريخية القديمة ولكنه لا يوجد على أبداننا الآن. هذه ثروة لنـا أهداها إلينـا الاتحـاد الوطنـي. لا نتركها ونرجع إلى الزمن الذي لم تكن حياتنا المشتركة قد بدأت فيه.

هماري كياره صديون كي مشترك (ملي جلي) تاريخ ني هماري هندوستاني زندكي كي تمام كوشون كو ابني تعميري سامان سى بهر ديا هي. هماري زبانين، هماري شاعري، همارا ادب، هماري معاشرت، همارا ذوق، همارا لباس، هماري رسم ورواج، هماري روزانه زندكي كي بي شمار حقيقتين، كوئي كوشه بهي إيسا نهين جس بر اس مشترك زندكي كي جهاب نه لكي هو. هماري بوليان الك الك تهين مكر هم ايك هي بولي بولني لكي. هماري رسوم ورواج ايك دوسري سي بيكانه تهي مكر انهون ني مل جل كر ايك نيا سانجا بيدا كرليا. همارا برانا لباس تاريخ كي براني تصويرون مين ديكها جاسكتا هي، مكر اب وه هماري جسمون به نهين مل سكتا. يه تمام مشتركه سرمايه هماري متحده قوميت كي ايك دولت هي. اور هم اسي جهور كر سي زماني كي طرف لوتنا نهين جاهتي جب هماري يه ملي جلي زندكي شروع نهين هوئي تهي[٤]."

إن سكان الهند – مهما كان دينهم – لعبوا دورا مهما في عصور التاريخ المختلفة لتنمية العلوم والفنون والآداب. كيف تمكن

من هذا؟ تمكن بكون أرض الهند تحمل ظرفا واسعا. ولذلك نرى أنه من دخلها مرة ولو كان زائراً لم يغادرها قط بل مكث فيها طوال عمره واستوطنها وأحبها كحب المرء مولده.

يبدو أن " المولانا أبو الكلام آزاد" مع كونه مسلما كان يرى أن الوصول إلى الله عزوجل يمكن بطرق مختلفة ولا يحتاج الطالب أن يكون محصوراً في دائرة واحدة. يقول إن اختلاف الديانات مهما بلغت شدته إنما هي نتيجة سوء فهم العلماء المدعين الرشد والهداية أما في نفس الدين فلا اختلاف فيه. أيما طريق سلكه الطالب للوصول إلى الحق يهديه إليه. وهذا ما نراه في إحدى رسائله كتبها في قلعة أحمد نغر ونقلت في " غبار خاطر":

اسي مقام بر بهنج كر يه حقيقت بهي بي نقاب
هوئي كه علم اور مذهب كي جتني نزاع هي وه
في الحقيقت علم اور مذهب كي نهين هي. مدعيان
علم كي خامكاريون اور مدعيان مذهب كي ظاهر
بر ستيون اور قواعد ساري كي هي. حقيقي علم
اور حقيقي مذهب اكرجه جلتي هين الك الك
راستون سي مكر بالآخر بهنج جاتي هين ايك هي
منزل بر.

عباراتنا شتى وحسنك واحد. وكل إلى ذلك الجمال يشير

يمكن الاختلاف معه في هذا ولكن لا شك في هذه الحقيقة أنه كان مخلصا في هذه الفكرة التي صرح بها في عدة مقامات. كان يريد بصميم قلبه أن تكون الديانات التي توجد على ظهر أرض الهند مشددة بحبل واحد ولو كانت طرق العبادات مختلفة.

تمتاز الهند في كونها مهدا للديانات المختلفة بحيث أنها جذبتها في دماءها وعروقها حتى لم تبق صورتها الأصلية على ما كانت من قبل بل اتخذت خصائص حضارتها. حكي أن وفدا للمجوس دخلوا على أحد من ملوك الهند واستأذنوا منه السكونة في بلده. الملك دعا بالكوب المملوء بالحليب وعرضه لقائد الوفد وقال له: هل من مكان خال؟ أشار أن أرض الهند لم يبق فيها مكان يعطيهم لهم. القائد المجوسي دعا بسكر وألقاه في كوب الحليب وقال " هكذا نعيش". الملك فرح بعمل القائد وقوله وأذن لهم أن يسكنوا في بلده.

تظهر خصائص أرض الهند من هذه الحكاية (ولو لم تكن صحيحة) أنها لم تزل حضانا من أول يوم ما بدأت فيه حضارتها للديانات المتنوعة.

كان أبو الكلام يعتقد أن الدين – مهما كان – أصلا أرسل لإصلاح أحوال الناس وأن يقوم الناس بالقسط والعدل وأن ينتشر الحب في أنحاء العالم. وإذا كان أصل كل دين سواء فلماذا يتحارب

أهل الديانات المختلفة. هكذا صار الشيء المفيد في ذاته مضرا وذلك بعمل الناس السيء وفهمهم الناقص. وللهند اختصاص في أنها أمحت هذا الفرق من أصله وبناءه. ولذلك نرى الديانات المختلفة الصورة صارت كواحدة مع ألوان متنوعة.

توجد المساجد والمعابد في مكان واحد حتى في بعض المقامات يشترك لها جدارها ثم يرى الإنسان مناظر عجيبة. بعض الناس يدخل المساجد وبعضهم يدخل المعابد وهدف كليهما سواء وهو الوصول إلى أمله. وهم يسكنون أرضا واحدة و يتكلمون لغة واحدة. لباسهم سواء، تقاليدهم سواء. ويساعد بعضهم بعضا في حفلات الزواج وعند الموت. وهم مشتركون في السراء والضراء. إذا أصاب أحدهما ضر يحس الآخر بالألم. يعيشون كالسكر في كوب الحليب.

لا يخفى على العامل والفهيم أن بعض الناس في هذا الزمن يقوم بمجهوداتهم البالغة ليخرب ويهدم بناء الاعتماد والأخوة والتعاون والتضامن بين أهالي الديانات المختلفة ويشعل الحرب بينهم ويحركهم على قتل بعضهم بعضاً. أولئك الذين يهدفون إلى انهدام الأساس الوطني الهندي الذي استغرق ألوفا من السنين في بناءه.

يجب علينا في هذه الحالة أن نقوم بكل حمية للمدافعة عن هذا الأساس وألا نسمح هؤلاء المخربين أن يفوزوا في أغراضهم الفاسدة. وهذا هو المطلوب الذي كان يشتاق إليه المولانا أبو الكلام آزاد وغيره من قواد الهند. وبهذا العمل يتحقق أملنا الذي في قلوبنا لترقية الوطن وتنميته.



المراجع:

[١] ـ خطبات آزاد، ص: ٢٠٥
[٢] ـ المرجع السابق، ص: ٢٥٠
[٣] ـ المرجع السابق،ص ٢٥٠-٢٥١
[٤] ـ المرجع السابق.

